

الحياة البرية في الجزائر خلال العهد العثماني
من خلال كتب الرحالين الأوروبيين
د. لخضر بوطبة
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف

مقدمة:

يعيش العالم اليوم لاسيما المتقدم حالة من الاهتمام اللافت بالثروة الحيوانية، وتدافع تنظيمات حكومية وغير حكومية عن فكرة المحافظة على البيئة وحماية الحيوانات البرية من الانقراض، وتخوض من أجل ذلك حربا ضد الصيادين والمتاجرين بهذه الحيوانات، وكما أنشأت العديد من المحميات الطبيعية لهذا الغرض، وفي الآونة الأخيرة أخذت تطفو على السطح فكرة إعادة نسخ الحيوانات التي انقرضت من كوكبنا منذ آلاف السنين، وإعادة بث الحياة فيها كحيوان الماموث على سبيل المثال.

وقد كانت الجزائر خلال العهد العثماني ولا تزال تزخر بثروة حيوانية معتبرة بحكم شساعة مساحتها وتنوعها البيئي والمناخي، حيث أن لكل إقليم مناخي خصوصياته النباتية والحيوانية، فهل هذه الثروة هي نفسها التي كانت متواجدة خلال العهد العثماني؟ أم خضعت للتغيير والتطور؟

لقد اهتم الإنسان بترويض الحيوانات البرية وتسخير قدرتها وقوتها لفائدته ولخدمته منذ القدم، كما استعملت العديد من الشعوب القديمة الحيوانات البرية المتوحشة في أيام الحرب و السلم، ففي الحرب استعملوا الفيل والجمل حيث يخبرنا القرآن في صورة الفيل عن هجوم أبرهة الحبشي على الكعبة باستخدام الفيلة، وكان الروم يستخدمون النمور والأسود لتنفيذ حكم الإعدام في حق مرتكبو الجرائم وجعلوها من مظاهر تسليتهم، وحسب النقوش التي وجدت على الصخور والحجارة والتمثيل كانت لهذه

الحيوانات قدسية لدى بعض الشعوب الذين اتخذوها كرمز لدولهم، وكانت مصدر إلهام للإنسان الذي حاول أن يستمد منها قوته.

وعلى غرار باقي الأمراء والملوك، كان حكام الجزائر خلال العهد العثماني-بايات وبشوات- يهتمون بهذا النوع من الحيوانات المرعبة والمسلية في الوقت نفسه، حيث كانت الجزائر تتوفر على هذه الأنواع، كما تمكن السكان من التأقلم مع وجودها، ووجدوا السبيل للتعايش معها في مناطق تواجدها، كما كانت مصدر رزق للبعض، وقد يندهش الكثير حين يقرؤون أن الجزائر قديما كانت مرتعا للوحوش والحيوانات الضارية، لكن ذلك كان حقيقة حيث أجمع الكثير من الرحالين الأجانب (الأوروبيين) الذي زاروا الجزائر خلال هذه الحقبة على وجود هذه الحيوانات.¹

لقد كانت إيالة الجزائر خلال العهد العثماني قبلة للعديد من الرحالين الأوروبيين الذين زاروها وكانت أغراضهم مختلفة، فمنهم من جاء في مهمة دبلوماسية لصالح حكومة بلاده مثل الرحالة الفرنسيين شوفالييه دارفيو² le Chevalier d'Arvieux و لوجي دوطاسي³ Laugier، وفونتيير

1-الإشارة إلى تطور أدب الرحلة حيث أصبحت الجزائر بعد انضمامها إلى الدولة العثمانية ابتداء من سنة 1520 قبلة للرحالة الأوروبيين، حيث أدى قعد العلاقات مع الأمم والقوى الأوروبية إلى إحداث نوع من التفتح الجزائر اتجاه هذه الدول، على الرغم من صعوبة توغل هؤلاء الرحالين في داخل تراب الإيالة، باعتراف بعضهم، حيث ذكر أحد الرحالين أن السكان كانوا يتوجسون خيفة من كل مسيحي ويعتقدون أنه جاسوس جاء ليقدم معلومات لحكومته لكي تمهد لعملية غزو للبلاد.

2-Laurent (le Chevalier) d'Arvieux: Mémoires du chevalier d'Arvieux, Paris, T.V, Jean -Baptiste Delespine libraire, Paris, 1735.

3 -Laugier de Tassy: Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, Amesterdam, 1725.

دو بارادي¹ Venture de Paradis، ومنهم من جاء لأداء مهمة افتداء الأسرى مثل الكاتب الإسباني هايدو² Haedo، ومنهم من جاء في رحلة علمية استكشافية مثل الرحالة الإنجليزي طوماس شو³ Thomas Shaw والفرنسيان بيسونال Peyssonnel وديفونتان⁴ Desfontaines والهولندي ألفرت دابر⁵ Olfert Dapper وغيرهم، كل هؤلاء سجلوا لنا انطباعاتهم وملاحظاتهم ومشاهداتهم وخرجاتهم بدقة متناهية لدى البعض، سنحاول التركيز في هذا البحث عن أخبارهم عن الحياة البرية، ونبحث في أسباب انقراض بعض الأنواع، وكيف كانت السلطة والسكان تستغلون هذه الثروة؟ وإلى أي مدى يمكن تحميلهما مسؤولية انقراض بعضها؟ وهل هذا الانقراض يعد نقمة أم نعمة على السكان في وقتنا الحالي؟.

ومن جميع هؤلاء الكتاب والرحالين يعتبر الرحالة الإنجليزي طوماس شو خير من صور لنا الحياة البرية في الجزائر في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث سمحت له مدة إقامته الطويلة في الجزائر التي

1 Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIII siècle, édition Sindbad, Paris, 1983.

2 Fray Diego de Haedo : Topographie et histoire générale d'Alger, traduit de l'espagnol par Monnreau et A Berbrugger, édition Bouchène, paris, 1998.

3 Thomas Shaw: Voyage dans la Régence d'Alger au XVIII e siècle, traduit de l'Anglais par Mac Carthy(1830), édition grand Alger Livres, Alger, 2007.

4 Peyssonnel et Défontaines : Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T1.

5 Olfert Dapper : description de l'Afrique, W. Waesberge, Boom et Van Someren, Amsterdam, traduction française de 1686 (édition originale 1668).

مكث فيها من سنة 1720 إلى سنة 1732 يعني أقام مدة 12 سنة¹، بتسجيل ملاحظات ومشاهدات قيمة شملت مختلف المجالات لا يمكن العثور عليها بأي حال من الأحوال في لمصادر المحلية التي لم تكن تلقي لها بال على مثل هذه الموضوعات المؤلفوة بالنسبة لكتاب ذلك العصر. وبدرجة أقل تناول الرحالة والعالم الطبيعي الفرنسي بيسونال الحياة البرية في الجزائر لكنه ركز أكثر على الحيوانات المفترسة وذكر كيف يطردها السكان ولكن غريزة البقاء كانت تدفعها إلى الهجوم من حين لآخر على المشاتي لكي تحصل على وجبتها.

أبرز الحيوانات التي وصفها الرحالون الأوروبيون:

لقد تناول الرحالة شو الكثير من الحيوانات التي كانت موجودة في عصره سواء كانت أليفة أو مفترسة، ولم يكن يكتف بذكر أسمائها فقط، بل كان يبدي ملاحظات حول خصوصيات كل حيوان وصفاته الجسمانية ونمط معيشته وغيرها من الملاحظات. ومن جملة الحيوانات التي ذكرها نذكر:

الخيول: أبدى الرحالة طوماس شو إعجابه بالخيول التي كانت تعيش في الجزائر في فترة واجده في الجزائر، وأشاد بالطريقة التي كان يتعامل

1- يعتبر الرحالة الإنجليزي طوماس شو من أبرز الرحالين الأوروبيين الذين حظيو بزيارة إلى الجزائر خلال العهد العثماني، حيث كان كاهنا بالوكالة الأنجليزية في مدينة الجزائر من عام 1720 إلى 1732، تجول شو في إيالة الجزائر حيث زار العديد من المناطق والمدن نذكر منها في الغربي جبال طرارا ووهران والشلف، وصعد جبل جرجرة ووصل إلى الساحل، وزار مدينة بونة وحصن الباستيون الفرنسي، ومن مميزات الكتاب الذي ألفه هذا الرحالة أنه متنوع العلوم، وهو ثري بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والطبيعية والأثرية، ولقد ساعدته المدة الطويلة التي أقام فيها في إيالتي الجزائر وتونس من جمع هذا الكم الهائل من المعلومات، بالإضافة إلى إطلاعه على الكتب والمعارف السابقة، مما اضفى على مؤلفه قيمة علمية كبيرة، يمكن للكثير من الباحثين أن يجدوا فيه ضالهم في مختلف تخصصاتهم.

بها السكان مع هذا الحيوان الذي خلقه الله عز وجل في القرآن الكريم¹ حيث يقول: "ومن الأشياء التي كان العرب مولعون بها تربية الخيول، حيث كانت لديهم ربما أفضل ما يمكن أن يملك المرء، سواء في الخفة أو في الجمال، وليس هناك أناس ماهرين جدا في ترويضها واستخدامها أكثر من العرب. إنها شغف لدى الأطفال عندما يولدون، وعندما يلتقي الأتراك في طريقهم ببعض العرب، فإنهم يجدون أي طريقة لتبادل خيولهم معهم، إذا أمكنهم ذلك، بكن هؤلاء العرب عادة ما يطلقون عليهم النار ويختفون بسرعة كبيرة في الجبال. هذه الخيول الجميلة هي التي يدعونها الخيول العربية، التي تأتي من الخيول البرية، بعد ترويضها"².

الحمير البرية: يذكر شو أنها كانت تعيش في الصحارى والغابات، ولا يمكن للعرب الإمساك بها سوى باستخدام الفخاخ، لا شيء يظاهي رشاقة هذه الحيوانات. إنهم يقتلونهم عندما ينزعجون منها ويأكلون لحومها، وهم يعتبرونها لطيفة للغاية.

وقد لفت انتباه هذا الرحالة إلى الأهمية التي كان السكان يولونها للحيوانات الأليفة التي كانت من أساسيات الحياة بالنسبة لهم لا يمكنهم الاستغناء عنها إذ يقول بهذا الصدد: "نظرًا لأن الثروة الرئيسية للعرب البدو هي في عدد قطعانهم، فسوف أصف هنا أولاً مختلف الحيوانات الموجودة في هذه المناطق، بدءًا من تلك التي تسمى حيوانات أليفة، من حيث أنها الأكثر فائدة للرجل".

1- لقد ورد ذكر الخيل في القرآن الكريم 5 مرات: في الآية 14 من سورة آل عمران، وفي الآية 60 من سورة الأنفال، وفي الآية 8 من سورة النحل، وفي الآية 64 من سورة الإسراء، وفي الآية 6 من سورة الحشر، كما ورد ذكره كذلك في الأحاديث النبوية الشريفة. وهذا يدل على مكانة هذا الحيوان وأهميته وقيّمته بالنسبة للإنسان، كما تغنى الشعراء بالخيول ونظموا فيه القصائد المخلدة.

2 -طوماس شو: المصدر السابق، ص 44.

كان الحصان من أبرز الحيوانات الأليفة التي كان يولؤ لها السكان الجزائريين العناية الأكبر من ضمن الحيوانات الأخرى حيث يقول الرحالة الانجليزي بشأنه: "الحصان، الذي كان في السابق مجد نوميديا، قد تدهور منذ عدد كبير من السنين، أو بالأحرى أهمل العرب تدريب هذا الحيوان الجميل، خوفاً من أن يروا متاعبهم تزداد عاجلاً أم آجلاً تزداد من قبل الضباط الأتراك، الذين لن يتوانوا في انزاع خيولهم منهم، إذا كانت تستحق العناية انطلاقاً من ذلك. لقد اشتهرت هذه الخيول بشكل خاص بثبات أقدامها، ولطفها في التدريب والركوب، وطول خطواتها."¹

وفي ذات السياق سجل الرحالة إعجابه أيضاً بحيوانين أليفين كانا يقدمان خدمات جليلة للإنسان ولا يزالان إلى الآن في بعض المناطق من جزائرتنا رغم مزاحمة المركبات والماكينات الصناعية لهما حيث يقول: "تعد الحمير والبغال من بين جميع حيوانات البلاد البربرية الأكثر مقاومة للتعب، إضافة إلى أنها لا تحتاج إلى نصف العناية التي يحتاجها الحصان. رغم ذلك لا يستخدمون الكثير من الحمير في مدينة الجزائر من أجل الركوب. لكن للاستخدام العام كما هو الحال في تونس حيث يوجد بأعداد كبيرة من السلالة الجيدة. يحظى البغل بتقدير كبير في كلتا الإيالتين، ويستخدم بسهولة أكبر من الحصان. من المؤكد أنه أكثر أماناً وأقوى من الأخير. كل ما قاله بلين وغيره من المؤلفين، لم أسمع قط أن البغل كان ولوداً."²

ولكن على الرغم من قيمة هذين الحيوانين إضافة إلى الخيل فإنها لا تظاهي حسب الرحالة شو في مكانتها وقدرتها الجمل لاسيما بالنسبة لسكان الصحراء، ولذلك دعونا نقتطف مما قاله عن الجمل العبارات التالية: "مهما كانت الصفات الجيدة لجميع هذه الحيوانات، لا يمكن مقارنة أي منها

1- طوماس شو: المصدر السابق ، ص45.

2- المصدر نفسه، ص 21.

بالجمل في العمل والتعب، حيث يمكنه أن لا يشرب الماء لمدة أربعة أو خمسة أيام على التوالي. ولا يتطلب أي طعام آخر سوى كمية صغيرة من الفول والشعير، أو بضع قطع من عجين الطحين، على الرغم من أن كل من جملنا كان يحمل ما لا يقل عن سبعة قناطير، وقد مشينا عشر ساعات وأحياناً خمسة عشر ساعة في اليوم، يعني كنا نقطع أكثر من فرسخ في الساعة. هذه الصفات الثمينة للإبل هي بلا شك السبب في أن العرب يسعون بكل الوسائل لمضاعفة عدده، الذي يتجاوز بالفعل في قطعانهم عدد الحيوانات الأليفة الأخرى."

وتحدث الرحالة شو عن نوع من الإبل لم يعد موجوداً في وقتنا الحاضر، وهو البعير ذي السنامين الذي يسمى باللاتينية الدرومادار حيث يقول عنه: "والإبل الذي نسميه نحن الدرومادار le dromadaire ليس شائعاً في البلاد البربرية كما هو في بلاد الشرق، ويتميز الإبل العادي عن الدرومادار بسرعه القصوى. يقول العرب إنه يستطيع أن يقطع في يوم واحد الكثير من الطرق التي يقطعها أحد أفضل خيولهم في ثمانية أو عشرة أيام. كان الشيخ الذي رافقنا إلى جبل سيناء والذي كان يركب إحدى هذه الجمال، يسعدنا كثيراً أن يقدم لنا أدلة على سرعته في الواقع، رأيناه في بعض الأحيان يسافر مسافة كبيرة في الخلاء لبضع دقائق. لا يزال هذا الحيوان مختلفاً عن الإبل العادي، حيث إنه يمتلك جسمًا مستديرًا ورشيقاً أفضل، وله سنام صغير على ظهره بدلاً من اثنين."

ويواصل حديثه عن الإبل فيقول عنها: "والإبل الذكور، هي وديعة للغاية ويمكن تربيتها بشكل كبير في جميع الفصول الأخرى من السنة، تصبح غاضبة في الربيع، وهو وقت التزاوج، الذي يحدث عادةً أثناء الليل. تحمل

الأنثى سنة كاملة تقريباً، أو من ربيع إلى آخر، كما يقال، وتولد صغار الإبل عمياء خلال الأيام الأولى من ولادتها مثل القطط والكلاب.¹

وكملاحظ دقيق لا يفوت الرحالة شو أن يسجل ملاحظاته ومشاهداته وانطباعاته حول بعض الأنواع الحيوانية ويجري مقارنة بينها وبين الحيوانات التي كانت متواجدة في أوروبا في عصره، فيقول على سبيل المثال عنها بصفة عامة مع إعطاء أمثلة بسيطة عن ذلك في قوله: "في هذا الجزء من إفريقيا، عادة ما تكون الماشية من الأنواع الأصغر من ماشيتنا، ونادراً ما يزن الثور السمين أكثر من خمسة أو ستمائة رطل. الأبقار لديها القليل من الحليب بما يتناسب مع حجمها، وعلى الرغم من أن لديها وفرة كافية للري تمتد من ديسمبر إلى جويلية، إلا أنها تعطي فقط زبدة متواضعة. هذه الأبقار لديها عيب آخر، وهو أنها تفقد حليبها بفقدان عجلها." يمكننا أن نلاحظ هنا أن الرحالة يتحدث عن نوع من الأبقار الصغيرة الحجم والتي تتواجد في المناطق الجبلية في جبال البابور وجيجل والقل والتي لا تزال تعيش في هذه المناطق إلى يومنا الحالي، وهي نوع قوي رغم صغر حجمها ومقاومة للطقس القاسي سواء في فصل الشتاء أو في فصل الصيف، كان السكان يعتنون بها من أجل لحومها وجلودها و حليبها قليل كما ذكر الرحالة شو.²

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 22.

2 -وأنت تتجول في المنطقة المذكورة سالكا الطريق المؤدي إلى مدينة زيامة منصورية انطلاقاً من مدينة عين الكبيرة مروراً بمدينة بابور وإراغن، أن سلوك الطريق المؤدي إلى مدينة لعوانة الساحلية التي تقع غرب مدينة جيجل مروراً بقرية سلمى وغابات الزان والكروش، أو سلوك طريق ثالث يؤدي إلى الطاهير شرق مدينة جيجل مروراً بمدينة بني عزيز وجيملة وتاكسانة، على طول هذه المسالك تجد العديد من قطعان الأبقار القصيرة مسترخية على جانبي الطريق تبحث عن الظل لتحتمي من أشعة الشمس اللافتحة، وأحياناً تستلقي في منتصف الطريق غير آبهة بالمارة وكأنها تقول احترموا خصوصيتنا،

وفي حديثه عن الحليب ودوره في كغذاء مهم للسكان لا ينسى الحديث عن استهلاك الحليب وكيف يصنع السكان نوع من الجبن حيث يقول: "النعاج والماعز وكذا الأبقار هي المصدر الرئيسي للحليب الذي يصنعون منه جميع أنواع الجبن المستهلك في هذا البلد. بدلاً من بلح البحر، يستخدم العرب والمغاربة، وخاصة في الصيف، أزهار الخرشوف البري لتحويل اللبن، عندما يتم تخثره، يصبونه في سلال صغيرة، حيث يضغطونها بشدة ليحصلوا على الجبن. تزن أجبانهم حوالي من اثنين إلى ثلاثة أرطال. ويصنعون الزبدة عن طريق وضع الحليب في القربة التي يعلقونها في طرفي خيمتهم، ويحركونها باستمرار حتى تتكون الزبدة ثم يسحبونها ويتركون ما تبقى من اللبن داخل القربة.¹

تشبه الماعز البربرية تلك الموجودة في البلدان الأخرى ولكن هناك نوعان من النعاج غير معروفين في أوروبا، أحدهما متوفر كثيراً في جميع أنحاء بلاد الشرق وإيالة تونس، وهو ملفت للانتباه بفضل ذيله الكبير. وهو مطلوب بشكل كبير لجودة صوفه، لكن لحمه ليس جيداً ولا رقيقاً مثل الأنواع الأخرى. لا يوجد سوى ذيله الذي يجهزون به العديد من الأكلات والتي تقوم

كما تنتشر أعداد هذا النوع من البقر كذلك في نواحي القل حسبما رأيت بنفسي وشاهدت.

1- استمرت هذه الطريقة البسيطة في صنع الجبن الطبيعي إلى غاية التسعينيات من القرن العشرين، كنا نصنع الجبن في الخلاء عندما كنا نرعى الماعز والأبقار، فكنا نقوم بحلب الماعز في إناء ثم نبحت عن نقطف حبات التين ونعصرها داخل إناء الحليب فتسكب قطرات من حليب حبات التين التي نسميها باللهجة القبائلية "أدگار" ونتركه لبعض الوقت ثم نعود إليه فنجد أنه قد تجمد فنتناوله وكان طعمه لذيذ جداً فيما أذكر كنا نسد به جوعنا وعطشنا في الوقت نفسه، لاسيما خلال الأوقات التي ترتفع فيها درجات الحرارة.

على الكسكسي وطبق الأرز، وهي تتألف بالكامل من الدهون الخالصة والتي لها طعم المخ.

و يذكر الرحالة شو أنه يوجد نوع ثاني من الأغنام في ورقلة، وأجزاء أخرى من الصحراء، يكاد يبلغ ارتفاعه مثل ارتفاع الغزلان التي تعيش في أوروبا، وتشبهها تمامًا، باستثناء الرأس وجسدها جاف وصوفها، الذي يقترب من شعر الماعز خشن، يمكن أن يعزى إلى حرارة المناخ، وندرة المياه، وإلى المراعي السيئة.

كان الجزائريون خلال العهد العثماني على غرار الشعوب الشرقية مولوعين بتربية المواشي التي يعتمدون عليها في معاشهم، يخبرنا الرحالة طوماس شو أنه بالإضافة إلى الأبقار التي تربي بأعداد كبيرة في المدن والقرى، لدى الجزائريين قطعان كبيرة من كل نوع. هناك على سبيل المثال، قبائل تملك ثلاث أو أربعمئة خيل، وما يقارب من عدة آلاف من الإبل، وعدد أكبر بكثير من الثيران والأغنام. ونادراً ما يأكلون ماشيتهم، ويتغذون بشكل رئيسي على اللبن والزبدة، أو ما يحصلون عليه في مقابل الصوف. ومهما كان استهلاك اللحوم في المدن والقرى، فهو أقل بكثير من عدد المواشي التي يربونها كل عام، وإذا قصر السكان في رعايتها، على الأقل خلال الموسم السيئ، ستكون عما قريب لا حصر لها.¹

وقد أشار الرحالة إلى وجود الثيران البرية بكثرة في البلاد البربرية تلك التي يسميها العرب البقر الوحشي. حيث يقول أن هذا النوع من الحيوانات يختلف عن البقر العادي من حيث أن لديه أجساماً مستديرة، ورؤوس مسطحة، وأقراناً متقاربة. هناك بعض الدلائل بأنه الحيوان الذي يسميه بيلونيوس بوس أفريكانوس، وهو يعتقد بالدليل في أن يكون البوبولوس أو جاموس القدماء. ومع ذلك، وفقاً لوصفه، فإن هذا العدد من الحيوانات لن

1 -طوماس شو: المصدر السابق، ص 24.

يكون أكبر عدداً إلا من الماعز فقط، في حين أن الحجم الذي أتحدث عنه هو حجم ولون الغزلان. يتم ترويض صغارها بسهولة، وترعى مع الثيران الأخرى كما أن العرب يطلقون اسم بقر الوحش على نوع من الإيل التي لها قرون الغزلان، ولكنها ليست كبيرة. تلك التي رأيتموها قد تم القبض عليها في الجبال القريبة من سكيكدة، وبدأت لي لطيفة جداً. والأنثى ليس لها قرون، مما يجعل العرب يسمونها فرطاسة أو صلعاء.

يوجد في البلاد الجزائرية بالإضافة إلى الغزال أو الظبي العادي، وهو معروف جداً في أوروبا، نوع آخر له نفس الشكل واللون، مع اختلاف حجم الغزلان لدينا، وأن قرونها طويلة أحياناً يصل طولها إلى قدمين.

ومن خصائص حيوان بقر الوحش، وكذلك الغزال أنهما يعيشان في مجموعات. هذه الحيوانات متشابهة في المظهر من خلال فرائها وطريقة جريها، وكذلك طريقة توقفها، وطريقة الالتفاف من الشيء الذي يلاحقها. والمناطق التي تتوفر على أحد هذين النوعين تتوفر على الأنواع الأخرى أيضاً. لكنها توجد بأعداد أكبر لا سيما على حدود التل وفي الصحراء. وبالنسبة للباقي أخطأ بوشارت وغيره من العلماء في اعتبار الغزال أحد أنواع الماعز. لأننا دائماً نسمع بهذه الكلمة، سواء في بلاد الشرق أو في البلاد البربرية، الحيوان الذي نسميه الظبي.

الأسود والفهود: حظيت الأسود باهتمام لافت للنظر من قبل الرحالة شو حيث تحدث عنها مطولاً مقارنة مع باقي الحيوانات حيث يقول عنها: "تحتل الأسود والفهود المرتبة الأولى بين الوحوش الشرسة في هذه المناطق، لكن لا وجود للنمور. وللإناث من النوعين الأولين صفان من الحلمات مثل الكلبة، وكثيراً ما تلد ثلاثة أو أربعة، وأحياناً خمسة أشبال. يقول العرب أن الأشبال عندما تبدأ أسنانها في الظهور تتعرض لحمى عنيفة، والتي تقضي غالباً على ثلاثة أو أربعة منهم، وهذا هو السبب في أن الأسود

والفهود أقل عددًا من الحيوانات المفترسة الأخرى. مهما كان سبب هذا التراجع، سواء كان ناجمًا عن المشاكل التي يواجهونها في نمو أسنانهم، أو عن حقيقة أن العرب أكثر انتشارًا في المناطق الداخلية من البلاد مما كانوا عليه سابقًا، أو أن الاستخدام الأكثر للأسلحة النارية قد أعطى السكان وسائل تدميرها أكثر مما تم القيام به في السابق، فمن المؤكد دائمًا أنه سيكون من الصعب جدًا الآن العثور على الوحوش الشرسة التي كان يتم اقتيادها إلى روما لتقديم عروض للناس.¹

وقد أشار شو إلى ظاهرة قد يجدها البعض غريبة ومدهشة وغير قابلة للتصديق وهي أن الأسود كانت لا تهاجم المرأة حيث يقول هذا الصدد: "لقد قرأت في بعض ما كتب عن هذا البلد أنه يمكن للمرأة أن تتعامل مع الأسد بأمان، وإن تسلحت بعضا، وتحدثت معه بلطف، تجعله يفقد شراسته، وينضم إلى القطعان المكلفة هي برعايتهم. من المحتمل أن يحدث هذا عندما تتغذى هذه الحيوانات جيدًا، لأنها تخسر كما يقولون شجاعتهما، وتعانون حينما ينتزعون منها فرائسها. لكن هذه الأمثلة نادرة، وغالبًا ما تلتهم الأسود النساء والرجال عندما لا يكون لديها فرائس أخرى." وذكر الرحالة أن النار هي أكثر الأشياء التي تخافها الأسود، والتي يبدو أن جميع الحيوانات المفترسة تشترك في هذه الخاصية. ثم يقول: "لكن على الرغم من الاحتياطات التي كان يتخذها العرب في هذا الصدد، وعلى الرغم من نباح كلاهم، والصراخ الذي يقومون به بأنفسهم لطردهم، إلا أنه لا تكاد تمضي بضع ليال دون أن تقوم هذه الحيوانات الرهيبة بجميع أنواع الأخطار، حيث كانت ترمي نفسها في وسط بعض الدواوير، وتختطف بعض الأغنام أو الماعز بعيدًا. وعندما كانت هذه الحيوانات الضارية تعود لعدة ليال متتالية فإن العرب، بعد أن يلاحظوا بالضبط مساراتها، يحفرون في طريقها

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 7.

حفرة ثم يغطونها بقليل من القصب أو فروع صغيرة من الأشجار، وبالتالي ينجحون غالبًا في جعلها تقع في الفخ".¹

وقد أشار الرحالة الفرنسي بيسونال في معرض كلامه عن الحياة البرية في رحلته إلى الجزائر التي تزامنت مع رحلة طوماس شو إلى المعومات نفسها تقريبًا، نقتبس منه النص التالي: "أمضينا الليلة في دوار كبير يبعد عن القالة بأربعة فراسخ² يتكون هذا الدوار من مئتي (200) خيمة تابعة لقبيلة أولاد دريس. وعند المساء سمعنا أصوات عالية مصدرها الرعاة، كانت بسبب أسد قام بانتزاع بقرة في الدوار نفسه حيث أكلها في مكان قريب، دل عليه الهيكل العظمي للبقرة الذي عثر عليه الرعاة في الصباح."

ويستطرد في القول: "وبما أن هذه البلاد تعتبر مرتعا للأسود والنمور والدببة وغيرها من الحيوانات المفترسة فإن مواشي العرب بها مهددة باستمرار، وحتى العرب في خيامهم لم يكونوا في مأمن من هذه الحيوانات. ولذلك فإنهم مجبرون على جعل أجراس تصدر الأصوات طوال الليل حتى تجعل الكلاب تنبح، لإبعاد هذه الحيوانات. الأسد، ملك الحيوانات لكن هذا الحيوان ليس وحشياً في هذه المنطقة، كما أنه ليس مرعباً إلى الحد الذي نعتقد. فهو من النادر أن يهاجم الرجال. حيث يوجد مع ذلك الكثير من العرب تغلبوا على الأسود وقتلوا الكثير منهم بسكاكينهم، لكن بعد أن يكونوا قد تلقوا الكثير من الإصابات بجروح بواسطة مخالب وأنياب هذه الحيوانات المرعبة. وعلى شاطئ البحر حيث يوجد الكثير من الخنازير البرية والظباء التي تشكل غذاءً للأسود. وفي هذه النواحي ليست الأسود مخيفة كما في الصحاري، ومع ذلك فقد أكدوا لي أنها كانت تقوم بانتزاع بقرة أو شاة من وسط الدوار وخيام العرب، وبعد ذلك يذهب الرجال والنساء لمطاردتها وكانوا

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 18.

2 - حوالي 16 كلم.

يتمكنون من انتزاع تلك البقرة أو الشاة من بين أنياب الأسد، ويجبرونه على الفرار إما بالصراخ أو بضربه بالعصي. وقيل لي أن الأسد كان يخاف النساء أكثر مما كان يخاف من الرجال، وأن المرأة عندما ترى الأسد كانت تشر على ساعديها وتكشف له عن صدرها وتصرخ في وجهه قائلة له: ألا ترى أنني امرأة؟ وتستمر في توجيه الشتائم له فيخجل الأسد ويتراجع ثم يهرب¹.
وقد أكد الرحالة الفرنسي ديفونتان الكلام نفسه في قوله: "يقولون أن الأسد لا يهاجم النساء لأنه يشفق عليهن لأنهن ضعيفات، وقيل أيضا أنه نادرا ما يهاجم الرجال إلا إذا دفعه الجوع لذلك."²

ويقولون أن الأسد يميز جيدا حين يحدثه الإنسان بازدراء وحين يداعبه. وأكدوا لي أنهم لما أخبروا الباي³ بذلك رغب في أن يجرب الأسد بنفسه، فأبلغوه عن أسد وقع في حفرة أعدت خصيصا لاصطياده كما اعتاد العرب على فعل ذلك لاصطياد الحيوانات المفترسة، فذهب الباي نفسه إلى هناك فلما تحدث معه ومدحه وأشاد به طأطأ الأسد رأسه وخفض ذيله، واتخذ شكل وموقف التواضع والمداعبة، ولكن عندما أساء معاملته بالكلمات النابية بدا غاضبا وأخذ يزار. ومع ذلك فإن أسود هذه البلاد أقل خجلا من الأسود التي قيل أنها تعيش في مقاطعة أيل، في نواحي مملكة المغرب، حيث أصبح خجل أسودها مصدر المثل القائل: "شجاع مثل أسد أيل"

1- هناك رواية منتشرة إلى الآن في النواحي الغربية لجيجل (منطقة لعوانة وما جاورها) تذكر هذه الرواية أن النمر كانت لا تؤذي النساء، فإذا صادفت امرأة نمرا فإنها تكشف له عن ثديها فيخجل ويتراجع، وقصة ذلك كما روت لي حماتي السيدة زبيدة عمور من دوار لعوانة والقصة لا زالت تحتفظ بها الذاكرة الشعبية أنه حدث ذات يوم أن امرأة أرضعت نمرا صغيرا حتى كبر ومن يومها أصبحت كل النمر لا تهاجم النساء في المنطقة الجبلية في نواحي جيجل.

2 - Peyssonnel et Desfontaines :op, cit, p168.

3 -هو الباي قليان حسين بوقمية 1736-1713.

الذي تأكل العجول ذيله"، والأسود هنا أقل قساوة من النمر ومن باقي الحيوانات المفترسة. وليس هناك فيما يظهر كما قيل لي حيوان يفر حين سماعه صياح الديك سوى الأسد، ولذلك فإن العرب يقومون بتربية الكثير من الديوك، وكذلك من الممكن أن صياح الديوك في ساعات مختلفة من الليل، فإن صياحهم يُبعد الأسود كما يفعل أي ضجيج حاد.

وقد روى لي عدد من الأشخاص الموثوق بهم أن العرب قد هوجموا ذات مرة من قبل بعض الأسود، فأصبحوا غاضبين جدا، ثم اصطفوا ضدها، ووجدوا صعوبة كبيرة في منع رفيقهم من الذهاب لمهاجمتها وحده." ويبدو أن السكان الجزائريين كانوا يأكلون لحم الأسد حسبما أورد الرحالة شو حيث يقول: "إن لحم الأسد، الذي يحظى بتقدير كبير من العرب، مرتبط بما فيه الكفاية بالعجل، من حيث الذوق والرائحة." لكنه لم يخبرنا هل كانوا يستخدمونه كعلاج لبعض الأمراض أم لا؟ لأن لحوم أكل هذه الحيوانات المفترسة حرام في الشريعة الإسلامية بالنص القرآني.¹

وتحدث شو عن الفهود التي انقرضت في الجهة الشمالية إبان الثورة التحريرية، حيث تعرضت للصيد غير المشروع من طرف جنود القوات العسكرية الفرنسية بسبب جلودها، ولا تزال الفهود تعيش إلى يومنا هذا في الصحراء كما كان الأسد البربري أيضا يتواجد في الصحراء، وقد روت لي الوالدة الكريمة رحمها الله أن قريبا لها هاجمه فهد في منطقة لعلام شرق

1- نص الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة المائدة، الآية 3.

بجاية إبان الثورة التحريرية،¹ وهذا دليل يثبت وجود هذا الحيوان إلى وقت الثورة كما ذكرت للتو. يقول عنه الرحالة شو: "يشبه الفهد النمر من حيث هو مرقط مثله، لكنه يختلف عنه في جوانب أخرى، على سبيل المثال لديه بشرة داكنة وأكثر خشونة، وليس شرسا جدا. يعتقد العرب أنه ينتج من تزاوج الأسد وأنثى الفهد. يتغذى عادة على جثث الحيوانات الميتة، لكنه يأكل أيضاً الجذور والأعشاب مثل الذئب والضبع، ويهاجم الأغنام والماعز فقط عندما تبلغ به الحاجة أقصاها. وبالتالي لا يمكن أن يكون هذا الحيوان الطولي Tôlis أو الذئب الوشق loup-cervier عند القدماء، والذي يصفونه بأنه أكل اللحوم للغاية.

وذكر الرحالة شو نوع من القطط البرية يسمونه حرس الأسود، لأنهم يقولون إنه يحرس من العرين وهو الذي يقوم باكتشاف الفريسة، وبعدها يقوم بتحذير الأسود، وتناول الطعام فقط بعد رضاه.

وهناك حيوانان في البلاد البرية مرقطان مثل النمر. لكن بقعهما عادة ما تكون أغمق، وشعرهما أطول قليلا وأكثر ليونة. أول هذه الحيوانات هو نوع من القطط، حجمه أقل بالثلث من النمر، وهو يشبه الوشق، أو بالأحرى النمر الصغير الذي تحدث عنه أبيان Appien². والآخر لديه رأس مدبب صغير، مع الأسنان والقدمين والأصابع تشبه تلك التي يمتلكها ابن عرس. جسمه دائري ونحيف، ويبلغ طوله قدم واحد، ويتم تمييز ذيله من طرف إلى آخر بحلقات صغيرة بالأبيض والأسود، هذا الحيوان مغرم جداً

1- لعلام هي قرية جبلية جميلة تقع على بعد حوالي 20 كلم عن مدينة سوق الإثنين (شرق بجاية) هي بلدية في الوقت الحالي تابعة لدائرة سوق الإثنين.

2 أبينوس الإسكندري (أبينوس اللاتيني) هو مؤرخ يوناني من الفترة الرومانية، ولد في حوالي عام 95م في الإسكندرية وتوفي بلاشك بعد 161م، وهو مؤلف كتاب التاريخ الروماني.

بالدواجن، وفي بعض الأحيان تنبعث منه رائحة مقبولة جدًا، تغري المرء أن يأخذه من أجل رائحته، لكن جسده أكثر مرونة وأنفه أكثر حدة، غير أن ما يقوله القدماء حول هذا الحيوان غير دقيق للغاية، بحيث لا يعرف المرء الكثير إلى أي نوع من الأنواع يجب إلحاقه به، لأنه إلى جانب الفهد الصغير، أعتقد أنه نوع من القطط، يجب أن يكون أكثر رهبة من الحيوان الذي أتحدث عنه هنا، والذي ما يقوله القدماء أنفسهم لا يعدو أن يكون الثعلب. بعض المغاربة يسمونه القط البراني.¹

ومن جملة الحيوانات الضارية التي كانت ولا تزال تعيش في البلاد الجزائرية منذ العهد العثماني التي أحصاها الرحالة الأنجليزي طوماس شو: الضبع: يعتبر الضبع من أخطر الحيوانات وأشرسها حيث تمتاز بأنها تمزق فريستها بعنف شديد،² يقول عنه الرحالة شو أنه " بحجم الذئب لكن جسمه مسطح، وعنده عيب خلقي في القدم اليمنى الخلفية. على الرغم من هذا العيب، فهو خفيف بما فيه الكفاية، وأصعب في السباق من الخنزير البري. رقبته شديدة الصلابة لدرجة أنه عندما يريد أن يلتف للخلف أو إلى الجانب، عليه أن يستدير تمامًا، مثل الخنزير والغرير³ وما إلى ذلك. لونه بني غامق يميل إلى اللون الأحمر مع بعض الخطوط، مع أسمر مظلم قليلاً. يبلغ طول شعر نهاية رقبته حوالي ثلاث بوصات، ولكنه أقل خشونة من شعر الخنزير. لديه أقدام طويلة ومسلح بالمخالب التي يستخدمها لنبش الأرض والتقاط براعم النخيل وغيرها من الجذور، وأحيانًا حتى الجثث لأنه من عادة البدو، على وجه الخصوص، أنهم لا يدفنون موتاهم في أماكن مغلقة

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 19.

2- لمزيد من التفاصيل المثيرة أكثر عن هذا الوحش أنظر قناة ناشيونال جيوغرافيك أبو ظبي الفضائية، الحياة البرية، مملكة الضباع.

3- الغرير حيوان لاحمة ينتمي إلى فصيلة ابن عرس.

مخصصة لهذا الغرض مثل مقابرنا. وعندما يصطاد العرب أحد هذه الحيوانات، فإنهم يهتمون جيدا بدفن رؤوسها، أو على الأقل دفن المخ خوفاً، كما يقولون، أن يستخدمه أحدهم من أجل السحر. بعد الأسد والفهد، فإن الضبع هو أعنف وأقسى حيوانات البلاد البربرية. وفقاً لتشكله وعاداته، من المحتمل جداً أن يكون الضبع هو لينكس عند القدماء أكثر منه القط الزباد الذي هو منقط ولا وجود له في هذه البلاد أو الغرير الذي هو أكثر صفراً، والذي يبدو أيضاً غير معروف تماماً.

ويعد الذئب من أهم الحيوانات المفترسة التي كانت تعيش في الجزائر خلال العهد العثماني ولا زالت تصول وتجول في البرية إلى وقتنا الحاضر باحثة عن غذاءها في صراعتها من أجل البقاء، يقول عنه الرحالة شو: "الذئب أو ابن آوى لونه أغمق، ولكن حجمه مثل حجم الثعلب. ويتغذى مثل الضبع على الجذور والفواكه والجيف، ويتجول كل ليلة في الحدائق والقرى. يعتقد راي Ray أنه لايبس أوريوس lupus aureus عند القدماء. ولكن حسب قول أبيان، يجب أن يكون لايبس أوريوس حيوان أكثر شراسة بكثير¹.

وضمن فصيلة الصنوبريات كان هناك حيوان يشبه القط يعيش في عصر الرحالة شو ولا يزال يتواجد إلى وقتنا الحالي وأنا وقفت بنفسى على رؤيته ذات مرة جاء يبحث عن أكل وهو أكبر حجماً من القط العادي، يقول عنه شو: "يسميه العرب قط الخلاء، ويسمى بالفارسية سيالت غوش، وعند الأتراك قره كولاك، ويعني القط الأسود، أو القط ذي الأذان السوداء، هو في حجم قط كبير لونه بني يميل إلى اللون الأحمر ولون بطنه فاتح، وكمامة سوداء مرقطة أحيانا وأذان رمادية داكنة، مع نهايات مليئة خصل صغيرة من الشعر أسود وحاد مثل الوشق. هذا الحيوان الذي رسمه شارلطون Charleton، يختلف كثيراً عن قط الخلا البربري، الذي لديه رأس أكثر

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 19.

استدارة وشفاه سوداء. لكن على خلاف ذلك، يبدو تماما مثل القطط. وكان يعتقد منذ فترة طويلة أن هذا الحيوان وابن أوى، يشاهدان فريسة الأسد، ولهذا السبب جاءت تسميته بمقدم الخدمة للأسد. ومع ذلك هناك الكثير من الأسباب للتشكيك في ذكائها الجيد المزعوم. صحيح أنه أثناء الليل على حد قول بسالميست Psalmiste جميع وحوش الغابة تتحرك، وتكون صاحبة وراء فرائسها. وعندما تشرق الشمس، يعود الأسد إلى عرينه، فإننا كثيرا ما نرى قط الخلاء و ابن أوى يجمعان البقايا التي تخلصها الأسد.

بعد حديثه عن الحيوانات ذات الحجم الكبير ينتقل بنا الرحالة شو إلى وصف بعض الحيوانات الصغيرة الحجم، فتحدث عن الجرد والجربوع حيث يقول عنهما: "الجرد والجربوع هما صغيران من الحيوانات غير المؤذية التي تعيش تحت الأرض. وهي توجد بأعداد كبيرة في الصحراء. لكنني رأيت البعض منها في نواحي وهران. كلاهما بحجم الفئران. فهي ذات لون أسمر ببطن أبيض، ولديها آذان مستديرة وجوفاء، وتشبه الأرانب فيما يتعلق بالأسنان والشوارب، لكنها تختلف عنها في جوانب أخرى. رأس الجرد مدبب قليلاً وملئ بالشعر".

ويتميز الجربوع بخياشيم مسطحة وعارية وهي في مستوى تقريبا مع فمه. هكذا يختلف عن الأنواع التي تم إحضارها من الألب تلك التي وصفها هايم. وأقدام الجرد الأربعة لها نفس طول جسده، وتنتهي بخمس أصابع، وقدمي الجربوع البربري الأماميتين تحتوي على ثلاثة فقط، وهي قصيرة للغاية. طول قدماه الخلفيتين تقريبا بنفس طول جسمه، ولكل منهما أربعة أصابع و نتوئين، إذا استطعنا إعطاء هذا الاسم للمخالب الصغيرة التي توجد فوق القدم. وذيل الجرد أقصر قليلاً من ذيل الفأر العادي، لكنه أكثر سمكا.¹

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 20.

أما ذيل الجربوع فهو أطول من جسمه ولونه أصفر، وله خصلة شعر سوداء عند نهايته، على الرغم من أن قدميه الخلفيتين أطول بكثير من الأماميتين، إلا أنه يركض أو بعبارة أفضل يقفز بسرعة كبيرة، ويستخدم ذيله كدفة أو ثقل موازن للتحرك في حركته، يرفعه عادة في الهواء، وفي بعض الأحيان ينحني، إن لحم الجرد والجربوع جيد للأكل. نلاحظ هنا أن شو يزودنا بمعلومة ليس من اليسهل تصديق صحتها تلك التي تتعلق بأكل لحم الجرد بالنسبة للسكان الجزائريين، ولا يحدث ذلك سوى في أيام المجاعات الحادة حيث لا يجد الإنسان ماذا يأكل، ويا حبذا لو توسع الرحالة قليلا وأمدنا بمعلومات أوسع وأكثر وضوحا في هذه المسألة.

لا يعيش الجربوع في الصخور. إنه يبحث على العكس من ذلك، عن الأراضي القوية، ويفضل أن تكون رمال الصحراء. إنه يحب القصب والغار وبعض النباتات الأخرى الغريبة في هذه الصحراء، لذلك أينما وجدناها، كنا متأكدين من وجود الجربوع.

بالإضافة إلى الحيوانات التي تحدثت عنها للتو، تضم البلاد البرية أيضًا بعض الكائنات غير المعروفة في المناطق الأخرى من العالم. من ذلك نذكر الدب والشادي، أو القرد والضربان والقنفذ والثعلب والنمس والثعلب، والنمس، وفرخ الليل، وابن عرس، والخلد، والأرنب والخنزير البري. تم التأكيد على أن الأسد يتغذى بشكل رئيسي على لحم هذا الحيوان الأخير ومع ذلك لا يبدو أن هذا الحيوان يعتبر بالنسبة لخصمه الرهيب (يقصد الأسد) فريسة سهلة كما يبدو أنه يُعتقد أنهما قد تم العثور عليهما ميتين بجوار بعضهما البعض، كما أنهما خاضا معركة شرسة.

وعلاوة على الحيوانات المذكورة سابقا كانت تعيش في الجزائر السلاحف، حيث يخبرنا شو أنه كان هناك نوعان منها: السلاحف البرية

والسلفاة المائية، هذه الأخيرة لديها جسم مبسط أكثر من الأخرى، وذكر أنها ليست جيدة للأكل.

وكانت الحرباء التي يضرب بها المثل في تغيير المواقف، تعيش ولا زالت في الجزائر إذ يقول الرحالة شو بشأنها: "يمكن للأشخاص الذين يتمتعون ببصر جيد رؤية الحرباء بسهولة على جميع التحولات. والمعروف عن الحرباء بالإضافة إلى تغيير لونها، لسانها الذي تستعمله لاصطياد فرائسها، يبلغ طول هذا اللسان حسب ما أورد هذا الرحالة أربع بوصات، وهو يرميه بسرعة إلى الذباب والحشرات الأخرى التي يريد أن يصطادها، وذكر كذلك أن السكان المور والعرب يصنعون من جلده بعد أن يجففوه، نوع من التميمة التي يعلقونها حول رقابهم، والتي يعتقدون أنها قد تهيم فضيلة الحفاظ على أنفسهم من تأثير العين الشريرة.

إن الضب سحلية أخرى تحدث عنها ليون الإفريقي، تشبه كثيرا الضفدع، فيما يتعلق بجسمه وذيله المتقشر. تساب هو مصطلح يقترن من الذي سبق ذكره. وهناك أيضا في هذا البلد الضب الأخضر لونه بني فاتح وله بشرة مخططة من الرأس إلى الذيل مع بعض الخطوط الصفراء¹

الثعبان: ويعتبر الثعبان من أخطر الزواحف التي كانت تعيش في الجزائر والتي أشار إليها طوماس شو في قوله: "الثعبان من بين الزواحف الأبرز في هذا البلد. قيل لي إن هناك من يصل طوله من تسعة إلى اثني عشر قدماً." وذكر شو نوع من الثعابين يسمى الزريق يعيش في الصحراء، يبلغ طوله حوالي 15 بوصة، جسده رقيق، ومن اللافت للنظر أنه كما يبدو من اسمه، فإن حركاته لها سرعة مفاجئة. ولعل أخطر من كل هذه الثعابين هو الأفعى والذي نادراً ما يكون طوله أكثر من قدم، ولديه جسم أكبر من الزريق. يقول العرب أن بين الأفعى والطايطة عداوة كبيرة مثل الحرباء والأفعى، وأن قطرة واحدة

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 34.

من لعاب الطايطة تتسبب في حدوث تشنجات يليها دائماً موت فوري." وقد أشار الرحالة الفرنسي ديفونتان إلى الثعبان الذي يسمى الزريق في قوله: "بينما كنت في جبال تاسالا، أتيت لي الفرصة لرؤية الثعبان المسمى زريق ولكن كان من المستحيل بالنسبة لي الإمساك به، إنه بحجم ثعباننا ولكن بلون بني. رأيت واحداً مختبئاً تحت حجر جعلتها ينهض، وفي اللحظة التي خرج فيها بسرعة مذهلة، وعبر مسافة من اثني عشر أو خمسة عشر خطوة دون أن أتمكن من رؤيته. كنت أشعر بالفضول الكبير لتشريحه، لمعرفة إلى أن نوع من الزواحف يمكن أن أسمى، هذه السرعة الهائلة التي اعتبرتها حتى الآن خرافة. العرب يؤكدون أن لدغة هذا الثعبان تؤدي إلى الموت في ساعات قليلة"¹.

بعد الحديث عن الأنواع المختلفة من الحيوانات التي كانت تعيش في الجزائر حسب الرحالة طوماس شو، ننتقل الآن إلى عالم الطيور في البلاد البربرية. فبالإضافة إلى النسر يقول هناك القارابورنو karaborno، وهو من أنواع الطيور الجارحة رمادي اللون، هو بحجم الباز عندنا، لديه منقار أسود، عيون حمراء، الأرجل الصفراء وقصيرة، الظهر أزرق متسخ أو رمادي، الأجنحة سوداء، البطن والذيل أبيضان.

غراب الصحراء: حجمه أكبر قليلاً من غرابنا العادي، لديه منقار وأرجل حمراء وطائر الشقراق الذي يشبه أبو زريق في شكله وحجمه، إلا أن منقاره أصغر وأرجله أقصر. ظهره بني، ورأسه وعنقه وبطنه بلون أخضر شاحب، مع بقع زرقاء داكنة أو دوائر على الأجنحة والذيل، وتحليقه سيئ. يوجد على ضفاف الشلف وبوبراق وبعض الأنهار الأخرى.

الحوبارة أو الحوباري هو بحجم الديك المخصي، ولكن لديه جسم أطول. إنه يتغذى على براعم الأشجار والحشرات، مثل غراب الصحراء، وهو

1- Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, P 169.

يعيش مثله على حافة الصحراء، لديه جسم أصفر شاحب، وهو كله منقط باللون الأسمر، ريش أجنحته الكبيرة أسود وله بقعة بيضاء نحو الوسط. أما تلك التي في الرقبة فهي بيضاء مع خطوط سوداء، وصوته خشن، مثل الأصوات التي تصدرها الديكة عندما تتقاتل، منقاره مسطح بالكاد يبلغ طوله بوصة ونصف، أرجله مثل أرجل الحبار، ليس لها أصابع خلفية. يقال أن رأسه ومعدته جيدان جداً لداء العينين لذلك في بعض الأحيان تياغان بثمان باهض. لا يوجد شيء أكثر إمتاعاً من رؤية العدد الكبير من الحيل والطوائف التي يستخدمها هذا الطائر للهروب عندما يطارده صقر.¹

الطائر الرعد أو الزفزاف: هو الطائر الذي يعيش على الحبوب ويسير دائماً في أسراب، ليس لديه إصبع في الخلف أيضاً. هناك نوعان: النوع الأول أصغر بحجم دجاجة عادية. ولكن النوع الثاني أكبر، وهو تقريبا كبير مثل الحوبارا، ويختلف عن الصغير الذي يحتوي على رأس أسود وخصل من الريش الأزرق الداكن على وجه التحديد عند الرأس. وكلاهما لهما بطنان أبيضان وظهران وأجنحة بلون البوق مع بقع سمراء اللون، لكن لون ذيلها فاتح أكثر وتقاطعها خطوط سوداء. منقارها وأرجلها أقوى من تلك الموجودة عند الحجل. يُزعم أن اسم الرعد قد أعطي لهذا الطائر بسبب الضجيج الذي يحدثه عندما يهيم بالطيران من الأرض، واسم الزفزاف بسبب الضجيج الذي يحدثه عند التحليق بجناحيه.

طائر الكيتاوية: ويسمى أيضا طائر الترمجان الإفريقي le lagopède d'Afrique، هو طائر آخر يتغذى على الحبوب، ويعيش ضمن السرب، وليس له إصبع في الخلف كذلك. وهو يعيش في الأماكن القاحلة كثيرا، على عكس طائر الرعد الذي يفضل الأراضي الخصبة. إنه يشبه الحمامة في الحجم والشكل، ويغطي أرجله ريش صغير، مثل الحمام. لديه جسم لامع

1 -طوماس شو: المصدر السابق، ص 23.

مرقط باللون الأسود، وبطن أسود، وله هلال أصفر اللون جميل على العنق، وبقعة بيضاء على طرف كل ريشة من الذيل، والريشة في المنتصف طويلة ومدببة، مثل ذيل نقار الخشب، ولحمها هو مثل لحم طائر الرعد لونه أحمر في الصدر، وأبيض باتجاه الساقين. كما أنه جيد للأكل وهضمه سهل.¹

الحجل البربري: هو نفسه الحجل الأحمر لدينا. ولكن هناك نوع من السمان يختلف عن السمان العادي، لأنه ليس له إصبع خلفي وله لون أفتح. كلاهما من الطيور المهاجرة، وكذلك الطائر الحطاب، الذي يبدأ بالظهور في شهر أكتوبر، ويمكنه في البلاد حتى شهر مارس. يطلق الأفارقة على هذا الطائر حجل الحمار.

ويوجد من بين الطيور الصغيرة، نوع من أنواع طيور القلاع الذي له ريش جميل مثله مثل أي من الطيور الأمريكية. رأسه وعنقه وظهره ذو لون أخضر فاتح، وأجنحته رمادية اللون، وصدره أبيض أو مرقط مثل تلك الموجودة في القلاع، الردف ونهاية ريش ذيله وأجنحته ذات اللون الأصفر الجميل. إذا استثنينا الساقين، وهي أقصر وأقوى، فإن هذا الطائر يشبه في منقاره وبقية جسمه الطائر القلاع وهو ليس شائعًا للغاية، بحيث يشاهد فقط في فصل الصيف في موسم التين.

وبالإضافة إلى الطيور السابقة الذكر هناك طيور أخرى من فصيلة العصافير كما يذكر طوماس شو حيث يقول: "سأضيف إلى تسميات الطيور الصغيرة فصيلة من العصافير، تسمى الكابسا، والتي توجد عادة في المناطق التي تنمو فيها التمور إلى الغرب من بحيرة ماركيز. لا يهضم العصافير العادية للحجم، وهو بلون القبرة باستثناء الصدر الذي يكون لونه أفتح ومشرق مثل لون الحمام. أغنيته جميلة، وتتجاوز الكثير من حيث الحلاوة والوثام أغاني

1 - طوماس شو: المصدر السابق، ص. 24.

العندليب و الكناري. حاولنا نقله عدة مرات إلى القبروان ومدن أخرى ولكن دون جدوى: حيث كان يهزل بمجرد تغيير المناخ"¹.

طائر البجع البربري: كما يمكن أن يسمى، هو بحجم أبو طيط،² ساقيه حمراوان وله منقار واسع وأسود ومزود بأسنان، صدره وبطنه ورأسه بلون الحديد، ولكن ظهره أغمق، وله على كل جناح ، ثلاث بقع واحدة زرقاء، وواحدة بيضاء والأخرى خضراء بالقرب من بعضها البعض.

والبجع البربري ذو المنقار الصغير أكبر قليلاً من سابقه. له رقبة حمراء، ورأس مزين بخفة صغيرة من الريش من نفس اللون. وبطنه أبيض بالكامل، ويتنوع ظهره بكمية كبيرة من الريش الأبيض والأسود، وريش ذيله مُدبب، وأجنحته مطلية بقطعتين متجاورتين واحدة سوداء والأخرى بيضاء. ونهاية منقاره سوداء، وأرجله زرقاء داكنة من تلك الموجودة في أبو طيط.

البطة البربرية: هي بحجم أبو طيط لديه منقار عريض وسميك أزرق، ورأسه أبيض بالكامل وجسمه بلون الحديد.

البط البربري ذو الرأس الأسود له أجنحة مرقطة مثل أجنحة البجع الصغير المنقار الذي سبق لي أن تحدثت عنه، له منقار أسود طويل وضيق، وأرجله تميل إلى اللون الأسمر، وعنقه يقترب من الرمادي، وظهره وأجنحته سوداء، وبطنه ممزوج بالأبيض.

الطائر ذو الذيل الرمادي البربري هو أصغر بالنصف من الطيور التي ذكرتها للتو. له بطن أبيض وأرجل سوداء وجسم وأجنحة رمادية، ولديه بقعة سوداء وخضراء كل منها محاطة بدائرة بيضاء. يشمل سكان البلاد هذه الطيور المختلفة، بالإضافة إلى البط البري، وطائر أبو طيط، وجميع أنواع البط، تحت الاسم العام للبراك.

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص 25.

2- هو طائر مائي.

دجاج الماء البربري: هو أصغر حجما من طائر الزقراق. له منقار أسود، طوله بوصة ونصف، ولون صدره وبطنه أسمر غامق أو بلون الصدا، وظهره له نفس اللون ولكن أكثر غموضاً، أبيض تحت الردف، ومخطط فوّه بالأسود والأبيض. أجنحته منقطة بالأبيض، والقدمين بالأخضر الداكن.

الطائر الدراج البربري: هو أصغر من أبو طيط، له أرجل طويلة سوداء، وأصبعه الأوسط مسنن على كلا الجانبين، ولون منقاره أسمر بطول أربع بوصات، ولكنه أسود عند النهاية، رأسه صغير ولونه لون الصدا، ردفه أبيض وظهره وأجنحته بلون أسمر غامق للغاية، ومنقطة بالأبيض، وصدره منقط مثل نقار الخشب.

طائر المسيسي: أو طائر البقر هو بحجم طائر الكروان. لونه أبيض حليبي في جميع أنحاء جسمه، باستثناء منقاره وساقيه، فهما حمراوان جميلا. عادة ما يعيش هذا الطائر في المروج، وتقف بالقرب من البقر، ولحمه ذو مذاق سيء ويفسد بسهولة.

طائر أبو عنق: أو صاحب العنق الطويل هو نوع من أنواع طيور البيطور هو أصغر قليلاً من طائر أبو طيط، له عنق أصفر باهت، وعنق وصدر وبطن، أصفر فاتح، والظهر وأعلى الأجنحة أسود مثل طائر أبو زريق، ذيل قصير، وريش رقبتة طويل ومخطط بلون أبيض أو أصفر شاحب، ولون منقاره الذي يبلغ طوله ثلاث بوصات أخضر، ويشبه لسان اللقلق، ساقاه صغيرتان وقصيرتان. عندما يمشي أو يبحث عن طعامه، يطيل عنقه سبع أو ثمان بوصات، ولهذا السبب يسميه العرب أبو عنق يعني صاحب العنق الطويل.

الجراد: يعتبر الجراد من أكثر الحشرات إلحاقا بالضرر بالإنسان، حيث تجتاح أسرابه الحقول والمزروعات بشكل رهيب قد يتسبب في حدوث مجاعة، وقد يبلغ به التخريب والدمار إلى أن أصبح مضرًا للمثل في الدمار

والخراب عندنا هنا في الجزائر في الأدبيات الشعبية. والجراد ورد ذكره في القرآن كجند من جنود الله يرسله على العصاة عقاباً لهم¹، حيث قال عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ الأعراف: 133.

ونظراً للأضرار الكبيرة والخراب الذي يخلفه الجراد عند مروره فقد تحدث عنه الرحالة طوماس شو مطولاً حيث يقول عنه: "بالنسبة لأنواع الجراد التي يسميها علماء الطبيعة السرعوف، أضيف واحدة ذات اللون الأسمر، يبلغ طولها ثلاث بوصات، مع الأرجل الأمامية المسلحة بمناشير قرنية قوية. هناك العديد من الأنواع الأخرى من نفس الحجم من الأنواع مغطاة بقلنسوة، حيث تكون أجنحتها العلوية مخططة بلون أخضر فاتح، بينما تتنوع الأجنحة الأخرى بلون القرنفل والأسمر والقرمزي. هناك نوع ثالث يبلغ طوله بوصتين بأجنحة خضراء جميلة. ما يميزها بشكل خاص هما الهوائيان اللذان يخرجان من الأمام في شكل أعمدة."

ثم يواصل القول: "لم ألاحظ أبداً أن السرعوف تتجمع بأعداد كبيرة، لكن الأمر لا يتشابه مع الجراد، وهو ما يتم التحدث به في كثير من الأحيان لدى المؤلفين المقدسين والعلمانيين، لأنه دائماً ما يسير في أعداد لا حصر لها. ذلك الذي رأيته في سنتي 1724 و1725 كان أكبر بكثير من الجراد العادي. كان لديه أجنحة منقطة بالأسمر، والجسم والساقين باللون الأصفر الجميل. يبدأ هذا الجراد في الظهور في نهاية شهر مارس، وتحمله الرياح إلى الجنوب بعض الوقت. وعند منتصف شهر أبريل كان قد تضاعف بشكل مذهل، بحيث شكل خلال النهار أنواعاً من الغيوم التي حجبت ضوء الشمس. وبحلول منتصف شهر مايو، بعد الإخصاب يبدأ في التراجع تدريجياً إلى سهول

1- لمزيد من المعلومات حول هذا المخلوق العجيب أنظر: قسطاس إبراهيم النعيمي، الإعجاز العلمي في ميتة الجراد، 7/ 2007 م. <http://www.jameataleman.org/main/articles>.

متيجة وغيرها من الأماكن القريبة لوضع بيضه. وفي الشهر التالي تظهر أسراب الجراد الصغار، الذين يتجمعون في سرب بمجرد فقسهم، تكفي لتغطية مئات الأمتار المربعة. وبمجرد تجميعها تتقدم في خط مستقيم، متسلقة الأشجار والجدران والمنازل، وتلتهم كل ما كان أخضر عند مرورها. ومن أجل منعها."

وبعد هذه الصورة المرعبة التي قدمها لنا هذا الرحالة عن الجراد، يكلمنا عن الكيفية التي كان السكان حينئذ يتعاملون مع هذه الحشرة الضارة، إذ يقول: "يقوم السكان بحفر خنادق في حقولهم وحدائقهم ثم يملأوها بالماء، أو يضعوا على نفس الخط كمية كبيرة من التبن، والقش وغيرها من المواد القابلة للاحتراق التي يشعلون فيها النار. لكن كل شيء كان بلا فائدة، وسرعان ما امتلأت الخنادق، وتم إطفاء الحرائق من قبل عدد لا يحصى من الجراد، والتي نجح بعضها البعض دون انقطاع. الأسراب التي كانت تفتح المسيرة تتقدم بجرأة، وتلك التي تتبعها عن كثب تضغط على الأولى بحيث يصبح من المستحيل عليها التراجع."

ويفيدنا الرحالة بمراحل تقدم الجراد في نموه حيث يقول: "بعد أن يعيش الجراد لمدة شهر تقريبًا، لا يدمر كل المساحات الخضراء المحيطة به فحسب، بل يقوم أيضًا بالتهام الفروع الصغيرة ولحاء الأشجار، بعد أن يكون قد أكل بالفعل الثمار والأوراق، يصل أخيرًا إلى حجمه الطبيعي، ويغير بشرته. وكان يفعل ذلك من خلال التمسك بكفوفه بالشجيرات وفروع الأشجار وحتى الحجارة، ثم يقوم بحركة مشابهة لحركة اليرقة عندما تمشي. يحدث التحول في سبع أو ثماني دقائق، وبعد ذلك يبقى لبضع لحظات في نوع من الخدر الذي توقف، ولكن بمجرد أن تعطي الشمس والهواء بعض الدفء لجناحيه، ويقضي على الرطوبة التي كانت تُلْفه. يستأنف أول نهمه، ويصبح أقوى وأكثر مرونة من ذي قبل، ومع ذلك لا يبق طويلاً في نفس المكان، ولكنه

يتفرق مثل أمهاته، وبعد وضع بيضه. بينما كان يتجه دائماً نحو الشمال، بعضه كان يتوقف عن الظهور حيث ينتهي به المطاف بالبلع في البحر حسبما يذكر العرب."

ومن الخراب الذي يخلفه الجراد والحديث عن مراحل نموه يفيدنا الرحالة شو بمعلومات قيمة عن فوائد الجراد الذي يبدو أنه بقدر ما هو نقمة فإنه في ذات الوقت يعود بالنعمة على البعض فيقول بهذا الشأن: "الجراد المملح والمقلي يقترب من طعم جراد البحر في المياه العذبة. وهو مسموح لليهود بأكله" وأشار الأب الترينيتاري الفرنسي فيلومون دو لا موت إلى أن الجراد كان يلتهم حصاد المور وهم بدورهم كانوا يأكلونه¹. ومسموح للمسلمين كذلك أكل الجراد استناداً إلى الحديث الشريف فقد روى أحمد وغيره قوله صلى الله عليه وسلم: «أحلت لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»².

العقرب: صنف العقرب من أخطر الحشرات الصامته القاتلة، حيث يتعرض عدد كبير من الأشخاص للدغاته القاتلة، هذه الحشرة التي تحصد المئات من الضحايا في الجزائر في وقتنا الحالي كانت تفتك بأسلافنا خلال العهد العثماني حسبما يخبرنا الرحالة طوماس شو حيث يقول: "يحتل العقرب الذي تيعرف بصفاته الخبيثة عموماً، بعد الجراد المرتبة الأولى بين حشرات البلاد البربرية. هناك اثنان منها بعضها طويل ونحيف، والآخر

1- هو أحد الآباء الترينيتاريين، جاء إلى الجزائر سنة 1720 في مهمة لافتداء الأسرى المسيحيين وكتب عن وضعيتهم المزرية، كما تضمن كتابه معلومات قيمة عن الجزائر خلال هذه الفترة يندرج كتابه ضمن كتب الأسرى، أنظر:

François Comelin. Voyage pour la rédemption des captifs aux royaumes d'Alger et de Tunis. Fait en 1720. Par les PP., Philéon de La Motte.

2 -أخرجه ابن ماجة في سننه 2 / 1102، والبيهقي 1 / 254، وقال الألباني: صحيح، ينظر: السلسلة الصحيحة، 3 / 111.

مستدير وسمين، وكلاهما له ذيل بست فقرات لم أرها أبداً لها سبعة، كما يقول بعض الكتاب القدامى. والعقرب الذي يوجد أسفل جبل الأطلس ليس خطيراً للغاية تسبب لدغته فقط حى خفيفة، وسرعان ما يضعون قليل من ترياق مصنوع في البندقية يضع حداً لسمه. لكن عقارب منطقة الزاب وكل جزء من الصحراء تقريباً ليست أكبر ولونها أكثر سواداً فحسب، بل إن سمومها أكثر مكرراً وأكثر عنفاً، وغالباً ما تسبب لدغتها الموت المؤكد."

الرتيلاء (العنكبوت): إن المشاهد المرعبة للرتيلاء القاتلة التي شاهدها بعضنا في الأفلام السينمائية وعلى قناة ناشيونال جيوغرافيك الفضائية والتي تجعل المشاهد يرتعب لهذه الحشرة الخطيرة، مستوحاة من كتب التاريخ الطبيعي، حيث كان الأطباء والعلماء الطبيعيين كما رأيناهم يستعينون بالكتب التاريخية التي تناولت بالدراسة والتدوين هذه الحشرات والحيوانات منذ العهود القديمة، بغية التعرف عليها من أجل إيجاد الترياق للدغات القاتلة بسرعة قصد إنقاذ أرواح الكثيرين الذين هم عرضة للدغات هذه الحشرة الرهيبة، إن الرحالة طوماس شو أشار في رحلته إلى وجود هذه الرتيلاء المرعبة في الجزائر خلال القرن الثامن عشر حيث يقول بخصوصها: "لدغة بولكاز، وهي نوع من الرتيلاء التي تعيش في الصحراء، ليست أقل خطورة من لدغة ذلك العقرب الذي ذكرناه للتو، ويقدر أنه يموت عشرون أو ثلاثون شخصاً كل عام من لدغته، ومن لدغات الأفعى كذلك."

والملاحظ أن الرحالة لا يتوقف عند ذكر هذه الحشرة على غرار الحشرات والحيوانات الأخرى دون أن يغفل الوسيلة التي كان السكان يستعملونها لعلاج لدغة هذه الرتيلاء إذ يقول: "الوسيلة العلاجية المستخدمة ضد هذه اللدغات هي أنهم كانوا يقومون بكي الجزء المريض بأداة حادة، أو إجراء شق عميق وقطع كل اللحم المحيط. وأحياناً يضعون المصاب تحت الرمال الساخنة حتى العنق، أو في حفرة ساخنة حتى يتعرق بغزارة. وفي

الحالات الأقل خطورة، يقتصر الاستخدام على وضع الرماد الساخن أو مسحوق الجنة على الجرح، مع شريحتين أو ثلاث شرائح من البصل، في شكل كمد. لم أسمع أبدًا أنه في مثل هذه الحالة، يتم استخدام زيت الزيتون، وهو مع ذلك علاج محدد ضد لدغة الأفعى مع الحرص على تسخينه قبل فركه"¹

هذه ليست كل الحيوانات البرية فقط التي كانت تعيش في الجزائر في عصر الرحالة شو، بل هناك عدد لا يمكن إحصاؤه من أنواع الطيور والحشرات والأسماك والحيوانات الأخرى، وإذا كانت بعض الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور والدببة قد انقرضت من القسم الشمالي، وبعضها من الجزائر كلية كالنمور والدببة، فإن الأسود والفهود لا تزال تعيش في الصحراء، ولعل من بين العوامل التي ساعدت على انقراضها، نذكر الحروب الكثيرة، والصيد العشوائي من طرف الأهالي والعساكر الفرنسيين، حيث تذكر المصادر أن آخر أسد بربري شوهد في حوالي سنة 1960 في الجزائر.

والسؤال الذي يمكننا طرحه هنا كيف كانت السلطة تتعامل مع تواجد هذه الحيوانات المفترسة؟ وهل كانت تواجهها يؤثر على حركية السكان وتنقلاتهم لا سيما التجار؟ لا توجد لدينا معطيات ثابتة عن تعامل السلطة مع هذه الوضعية لكن المؤكد أن السكان تأقلموا مع تواجد هذه الحيوانات المفترسة، فكانوا يتجنبون الأماكن التي كانت مرتعا لهذه الحيوانات في طرقهم التجارية، وقد أكد هذا الأسير الألماني سيمون بفايفر الذي ذكر أن السكان كانوا يتجنبون الطرق التي تكثر بها الأسود والنمور وغيرها من الحيوانات الضارية.²

1- طوماس شو: المصدر السابق، ص36.

2- سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص 116.

صيد الحيوانات البرية:

لقد مارس الإنسان حرفة صيد الحيوانات منذ أقدم الأزمنة والعصور، وقد تطورت حرفة الصيد تطورا رهيبا سواء في الغاية منه، أو فيما يتعلق بالوسائل والأساليب، فهناك الصيد الاحترافي، وصيد الهواة، وإذا كان بعض الصيد كان الهدف منه البحث والحصول على مصدر العيش بالنسبة للبعض، فإنه هواية وتسلية وترفيه للبعض الآخر.

وعلى غرار باقي شعوب المعمورة فقد كان الجزائريون خلال العهد العثماني سلطة وشعبا حرفة يمارسون حرفة صيد الحيوانات للغرضين المذكورين سابقا، فالأهالي كانوا يصطادون الحيوانات للاستفادة من لحومها وجلودها وفروها وصوفها وشحومها، وكان الحكام يتلذذون بلحومها ويستغلون جلودها وريشها، ويستعملون الصيد كوسيلة للترفيه عن النفس والتسلية.

ليس موضوعنا هنا التطرق إلى حرفة الصيد وقوانينها ونظمها وأدبياتها، لأن المجال لا يتسع لذلك، وإنما أردنا أن نبين أن الجزائريين حكاما ومحكومين مثلهم مثل باقي شعوب العالم حينئذ مارسوا هواية الصيد كما كانت لهم احتفالاتهم وفضاءات تسليةهم وترفيههم، ولذا سنحاول التركيز على مدى استغلالهم للثروة الحيوانية التي سبق الحديث عنها في حياتهم اليومية، من خلال استقراء ما ورد في كتابات الرحالين الأوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الحقبة التاريخية.

صيد الأسود:

تجمع المصادر الأجنبية المعاصرة للفترة العثمانية أن الجزائر كانت مرتعا للحيوانات المفترسة منها الأسود والفهود والنمور والدببة، ولا شك أن سكان المناطق القريبة من أماكن تواجد هذه الحيوانات الضارية كانوا يواجهون مشاكل معها، سواء في أماكن إقامتهم، أو أثناء قيامهم بالنشاط

الفلاحي المعتاد كالرعي والبذر والحصاد وغيرها من الأنشطة أو من خلال التنقل عبر المسالك والدروب سيما في المناطق الغابية والجبلية. وقد تطرق الرحالة الأنجليزي إلى تواجد الأسود وكيف كانت تهاجم الدواوير كلما جاءت، وكيف كان السكان يتعاملون معها بدون خوف، حيث اكتسبتهم التجارب الشجاعة والوسيلة لإبعادها، وبهذا الصدد يقول رحالة آخر وهو عالم الطبيعيات الفرنسي ديفونتان: "أثناء إقامتنا في نواحي تلمسان كنا نسمع من حين لآخر زئير الأسود أثناء الليل، وافترست الأسود حمارا في الدوار المجاور للدوار الذي كنا نقيم فيه".¹

وعن الكيفية التي كان العرب يستخدمونها لاصطياد هذه الحيوانات يخبرنا الرحالة الفرنسي بيسونال أن العرب كانوا يصطادون الأسود بعدة طرق منها حفر حفرة كبيرة وتغطيتها بالأغصان وربط معزة أو شاة في وسط هذه الحفرة فلما يحاول الأسد أخذ فريسته يقع فيها فيقومون بقتله باستعمال البنادق، وهناك طريقة أخرى تعتمد على أن الصياد يقوم بربط شاة بالقرب من المكان الذي تجتمع فيه الأسود ويختفي على مقربة منها خلف شجيرة ولما يأتي الأسد لسحب فريسته يطلق عليه النار من بندقيته، لكن هذه الطريقة خطيرة بحيث يمكن أن يصاب الأسد بجروح فقط فيقوم بافتراس الصياد.² والطريقة الأولى هي الأكثر استعمالا نظرا لسهولة وقلة مخاطرها وفعاليتها.

ويبدو أنه كانت هناك طريقة الصيد مباشرة باستخدام البنادق وهذا ما أخبرنا به الرحالة الفرنسي ديفونتان حيث يقول: "لقد رأيت في جبال تلمسان رجل قتل ببندقيته خمسة عشر أسدا وثلاثة فهود. هذه الحيوانات تنام خلال النهار تحت الشجيرات السمكية، وتخرج فقط عند غروب

1 - Peyssonnel et Desfontaines : *Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger*, T2, publié par Durau de la Malle, Librairie de Cide, Paris, 1838, p167.

2- Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, p168.

الشمس من مخابئها. عندما يجوع الأسد فإنه لا يتوانى عن الدخول إلى خيام العرب لانتزاع فريسته، رغم نباح الكلاب، وصياح الرجال. عندما كنت أقوم بجولاتي لجمع النباتات كنت أتسلح ببندقية محشوة بالرصاص ورفقة أناس مسلحون جيدا ولم أصادف أبدا أي أسد.¹ وبدوره قد أشار الدبلوماسي والرحالة الفرنسي لوجي دوطاسي إلى وجود الأسود في معرض حديثه عن حياة السكان حيث يقول: "أنهم يحرصون على تربية الكلاب التي كانت تحرص البيوت وتصدر التنبيهات في حالة شاهدة الأسود."²

وذكر الرحالة الفرنسي ديفونتان أنه لما كان في طريقه رفقة رجل تركي لحمايته إلى المناجم بالقرب من معسكر يقول: "لقد سرنا خلف آثار أقدام أسدين لمدة ساعتين". وقال في موضع آخر: "لما صعدنا جبل تاسالا شاهدنا في الأفق المكان مليء بالغزلان وأبناء آوى والأسود".³

وأشار الرحالة الألماني سيمون بفايفر⁴ كذلك عندما تطرق إلى الحياة البرية في إيالة الجزائر إلى وجود الحيوانات المفترسة حيث قال: "أما فيما يتعلق بالحيوانات المفترسة في هذه المنطقة، فيوجد منها بصفة غير نادرة الأسود والنمور التي يخرج العرب والبايات لصيدها من حين لآخر، ويقتلونها لفروها، وقد يمسون بها عن طريق الحفر أو بالمصائد، ويحملونها إلى مدينة الجزائر، ويوجد في الصحراء العديد من النعام يصطادها العرب ويرسولونها

1 -Ibid, p168.

2- Laugier De Tassy: Histoire de Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, Amsterdam, 1725 , p56.

3- Peyssonnel et Desfontaines : op, cit, P 175.

4 -عاش سيمون بفايفر في الأسر في الجزائر مدة خمس سنوات (1825-1830)، حيث سمحت له هذه المدة من اكتساب العديد من المعارف والمعلومات الكافية عن إيالة الجزائر، فساهمت مذكراته في الكشف عن الكثير من التفاصيل عن هذه الإيالة وعن الاحتلال الفرنسي للجزائر باعتباره شاهد عيان.

إل مدينة الجزائر ويأكلون لحومها، ويكتفي رجلان أو ثلاثة بأكل بيضة واحدة، وقد أكلت منها بنفسى أكثر من مرة ولم أجد له مذاقا وطراوة مثل بيض الدجاج¹. وقال كذلك أن القبائل لا يأكلون اللحم كثيرا، ولكنهم في مقابل ذلك يكثرون من أكل لحوم الغزلان والإيل والأرانب التي يصطادونها². وعلاوة على صيد الأسود والفهود والنمور والخنازير البرية، فقد كان السكان يصطادون كذلك طيور النعام، هذه الهواية التي كانت تمثل بالنسبة للجيش فسحة للتسلية والترفيه وأخذ قسط كمن الراحة، وهذت ما شهد به الرحالة الفرنسي بيسونال الذي كان حينها برفقة باي قسنطينة في إحدى خرجاته في إقليم بايلك الشرق، حيث قال أن الباي سمح لجنوده بملاحقة طيور النعام التي كانت منتشرة في المكان، وقال أن الباي أهدها ريش إحداها³. وكانوا يصطادون أنواع أخرى من الطيور كالحجل والسمان فضلا عن الحمام.

الصيد بالصقور:

مارس القدماء الصيد بالصقور بعد تدريبها، وأصبحت هذه الظاهرة منتشرة في وقتنا الحاضر بين العائلات الميسورة، وتحظى بتنافس كبير بين ممارسيها، وقد أقاموا مستشفى خاص بالصقور ومعالجتها في إحدى الدول العربية الخليجية البترولية، وهذا مظهر من مظاهر البذخ والترف، وفي الجزائر خلال العهد العثماني كان فن ترويض الصقور لاستخدامها في الصيد منتشرا قبل العهد العثماني، ولا شك أن الحكام الحفصيين والزيانيين

1- سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، ترجمة أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر، 2008، ص 135.

2- سيمون بفايفر: المصدر نفسه، ص 142.

3- ين أندري بيسونال: رحلة إلى إيتالة الجزائر، ترجمة وتعليق د. لخضر بوطبة، كتاب تحت الطبع، ص 35.

وكذلك الأسر الكبيرة كانوا يمارسون هذه الحرفة، وكانت الصقور المدربة يتم تقديمها كهدايا ثمينة للملوك والأمراء والشخصيات المرموقة حينئذ، فقد أورد المؤرخ الإسباني مرمول أن ملك تلمسان الزياني أبو حمو بعد مقتل عروج سنة 1518 واسترجاعه كرسي عرشه بمساعدة الإسبان، عرض نفسه كتابع دائم للملك الإسباني فرديناندو الكاثوليكي يدفع له سنويا اثني عشرة ألف قطعة ذهبية واثني عشر فرس واثني عشر من الصقور الإناث.¹

كما كانت الأسر الكبيرة في الجزائر خلال العهد العثماني تمارس هواية الصيد بالصقور مثل أسرة المقراني التي كانت تمتلك أراضي شاسعة في باليلك الشرق، تمتد من الصحراء جنوبا حتى مجانة شمالا وقلعة بين عباس، فكان شيوخها يتنقلون في فصل الشتاء نحو الجنوب، ويقضون فصل الصيف في الشمال، وقد ذكر الرائد فيرو Féraud أن سيدي ناصر سلطان إمارة بني عباس كاد أن يلقى حتفه، حيث دبر له أولاد ماضي كمين لاغتياله في إحدى رحلاته لصيد الصقور في منطقة الحضنة، لكنه تمكن من النجاة ودخل معهم في حرب وصراع.² وتجدر الإشارة إلى أن الحيوانات التي كانت تصطاد باستخدام الصقور هي الحمام والحجل وطائر الجبار والأرنب والجربوع، ولا زالت هذه الحرفة تمارس إلى يومنا الحالي في الأرياف والبراري الجزائرية.

وكان صيد الخنازير البرية يستهوي الجزائريين، حيث يذكر الرحالة الألماني فندلين شلوصر أنهم كانوا يصطادونها وكانوا يصطادون النمر كذلك

1 - كريخال لوي دال مرمول: إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989، ص 308.

2 - لمزيد من التفاصيل أنظر:

Ch. Féraud: Bordj Bouariridj, op. cit, p241.

ويبيعونها للفرنسيين.¹ ولا زالت هذه الهواية تمارس إلى يومنا الحالي باستخدام البنادق والكلاب المدربة، التي تدل الصيادين إلى أماكن تواجد هذه الحيوانات.

ترويض الحيوانات المفترسة:

يعتبر فن تدريب الحيوانات المفترسة وترويضها من الفنون التي مارسها الإنسان منذ القدم، وقد كان ذلك لأغراض شتى كالتسلية والصيد والحراسة بالنسبة للكلاب، ومع التطور الكبير الذي عرفته البشرية أصبح ترويض هذه الحيوانات من أجل جمع المال، وكما هو أحد مظاهر الأبهة والشياكة والمستوى المعيشي الراقى. وفن ترويض الحيوانات المفترسة هواية مارسها الحكام في الجزائر خلال العهد العثماني على غرار حكام وأمراء الدول الأخرى، إذ تخبرنا كتب الأسرى أنهم كانوا يستعينون بالأسرى الأوروبيين الذين كانت لديهم خبرة في هذا الفن، ومن الحيوانات التي كانت يتم ترويضها نذكر الأسود والنمور والفهود والقردة، وقد عرف هذا الفن التطور الكبير ووسع مجالاته فأصبح يشمل الخيول والصقور والبغاوات والقردة والفيلة وحمير الوحش وغيرها.

وفي الجزائر تخبرنا المصادر أن البايات والبشوات كانوا يعتنون بتربية الأسود والنمور وترويضها، فكانوا يخصصونها بالعناية والاهتمام لاستخدامها في الترفيه التسلية، وربما للتباهي عند استقبالهم الأجنب خاصة من الأوروبيين، مثلما حدث في عهد الباي أحمد كما روى لنا الرحالة الألماني فندلين شلوصر.² ومن المحتمل أنها كانت تستخدم في ترويع الأسرى وترهيبهم وهذا ما نلمسه مما أورد الأسير النرويجي نيلز موس (1769-1772) إلى وجود

1- فندلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي، ترجمة أبو العيد دودو، دار الأمة، 2007، ص ص 117-118.

2- فندلين شلوصر: المصدر نفسه، ص 47 وما يليها.

النمور والأسود في أحد سجون الأسرى في مدينة الجزائر حينما وصف ساعة اقتياده مع رفقاءه إلى السجن بعد عملية الأسر حيث قال: "كان الفراش قديم، وبالٍ ومتعفن، ومرتفع، ويوجد في الجوار حوالي ثلاثون من الأسود والنمور التي كانت تزمجر باستمرار وكانت السلاسل المقيدة بها تحدث ضجيجا مرعبا حينما كانت تتحرك أو تقفز من أمكنتها فكان يسود الهلع والرعب في نفوس الأسرى التعساء فيهرعون مذعورين إلى الأماكن المرتفعة للاحتماء بها¹.

ولكن لم يخبرنا هذا الأسير لماذا جعلت السلطة هذه الأسود في هذا السجن؟ هل كان ذلك أنها لم تجد مكانا أفضل من السجون لإيوائها، أم لاستخدامها لترويع الأسرى وترهيبهم حتى يسارعوا إلى الكتابة لذويهم للإسراع في فديتهم بعد أن يصورا لهم تلك المشاهد المرعبة التي نقلها لنا هذا الأسير؟

التجارة بالأسود والفهود وجلودها:

لقد سبقت الإشارة إلى أن السكان كانوا يصطادون الحيوانات المفترسة لغرضين اثنين الأول لإبعادها عن خيامهم ودواويرهم ولحماية قطعانهم، والثاني لاستغلالها من خلال الاستفادة من جلودها وبيعها للأجانب، وهذا ما تبينه الوثائق المتعلقة بالشركة الملكية الإفريقية الفرنسية في القالة شرق الجزائر، حيث جاء في رسالة من السيد بار Barre ممثل هذه الشركة في بونة مؤرخة في 27 سبتمبر 1785 إلى السيد فيري Ferrier جاء فيها مايلي: السيد نيكولي، الذي مرت عليه الشركة لمدة ثلاثة أشهر تقريبا والذي لم يتمكن من الحصول على نمر أو أسد، وهو كائن جاء من أجله، يطلب مني أن أطلب منك إبلاغه إذا كان بإمكانه الحصول عليه الآن أو في غضون

1- نيلز موس: أسير نرويجي في الجزائر، ترجمة وتحقيق لخضر بوطبة، دار البدر الساطع، العلمة، الجزائر، 2019، ص.

بضعة أشهر.¹ إذ تبين هذه الرسالة أن تجارة الحيوانات المفترسة كانت تمارس، ولا شك أن القبائل المحيطة بعنابة (بونة) و القالة والتي كانت تمارس لتجارة مع الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية في مختلف السلاح والبضائع، لا شك أنهم كانوا يزودون هذه الشركة بالحيوانات المفترسة التي كانوا يصطادونها لهذا الغرض.

استعمال الحيوانات البرية في الهدايا:

شكلت الهدايا في الجزائر خلال العهد العثماني إحدى مظاهر العلاقات الوثيقة التي كانت تجمع بين إيالة والباب العالي، حيث كان هناك تقليد تبادل الهدايا، منذ أول اتصال للجزائريين بالسلطنة العثمانية، الذي يعود إلى ذلك الوفد الذي أرسله خير الدين بربروس للسلطان سليم الأول يطلب منه فرض حمايته عليهم وكان هذا الوفد محملاً بهدايا ثمينة تليق بمقام السلطان، ومنذئذ أصبح هذا التقليد راسخاً في العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي إلى نهاية الحكم العثماني في الجزائر.² فالبشوات الجزائريين كانوا يبعثون بالهدايا إلى السلطان الذي كان يبادلهم بهدايا أثنى وأغلى، وكانت الحيوانات البرية من بين محتويات تلك الهدايا، وقد شملت جلود الأسود والنمور والفهود والخيول العربية المسومة، وأجود أنواع البرانس والمنسوجات الصوفية، ويطلبون من السلطان إلى جانب التزكية والموافقة على الباشا المعين، إرسال المدد الحربي فيرسل لهم السلطان الفرمان مع قفطان التولية كما يرسل البارود والبواخر والأخشاب والحبال

1- Charles Féraud: Histoire des villes de Constantine, la Calle, 1877, P 426.

2- لمزيد من التفاصيل حول الهدية ودورها في العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي راجع:

Kamel Filali: **du don et du présent dans l'Algérie ottomane**, Arab Historical Review For Ottoman Studies, Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information, Tunisie, n°37, November 2007, pp63-84.

وغيرها من العتاد اللازم لمواجهة الخطر الخارجي.¹ بالإضافة إلى طيور الببغاوات والصقور المدربة على الصيد.

وكان على البايات أن يبعثوا بالهدايا الثمينة ليس للداي أو الباشا فحسب، بل لجميع من يعمل في قصر الحكومة، وكان لقياد وشيوخ القبائل لذلك يبادلون السلطة التي كانت تبعث لهم ببرنوس التولية بالهدايا، الأمر الذي يجعل المرء يستنتج أنهم يشترطون مناصبهم بهذه الهدايا ثم يقومون بعد ذلك بتعويضها من خلال الضرائب التي كانوا يجمعونها، وهكذا كان النظام الجزائري خلال العهد العثماني يعتمد على الهدية في تكريس مؤسساته.

والملاحظة التي يجب الإشارة إليها بخصوص الهدايا التي كانت متداولة في العهد العثماني، سواء محليا بين البايات والبشوات، أو بين الأشخاص من الفئات الاجتماعية الميسورة الحال مثل كبار التجار بما فهم اليهود، والشيوخ الدينيين والفقهاء وغيرهم، ورجال الحكم والسلطة، أو خارجيا مع الباب العالي أو مع مختلف القوى الأوروبية، فقد كانت طبيعة هذه الهدايا تعتبر من الكماليات التي كانت تهدف إلى التسلية والترفيه وليس لأغراض أخرى.

وقد كانت الهدايا تحكم العلاقات الودية بين الشيوخ الدينيين والسلطة، وبين السلطة وشيوخ القبائل ورؤساء العشائر والأسر الكبيرة ذات النفوذ، وهي عربون استمرار هذه العلاقات وتعبير صادق عن نيات كل منهم، وغالبا ما كانت تعقب هدنة أو معاهدة أو اتفاقية سلم بعد حرب أو سوء تفاهم. وكانت السلطة العثمانية على العموم توظف الهدايا الثمينة للحفاظ على ولاء الأسر الكبيرة المرابطية كما فعلت مع أسرة المرابط محمد أمقران، على سبيل المثال في عهد أبنائه وأحفاده، حيث ظلت أسرة هذا المرابط وفيه في تقديم خدماتها للسلطة، وكانت هذه الأخيرة وكما جرت العادة تقوم

1- خليفة حماش: العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1988، ص 149 وما يلها.

بمبادلتها التقدير والاحترام والهدايا والامتيازات، كمثال على ذلك نذكر الامتياز الذي منحه أحمد باي بن فرحات مؤرخ في منتصف جمادى الثانية 1110هـ الموافق ل 1698م والذي منح للسيد أحمد المكي حفيد سيدي محمد أمقران مرابط بجاية، و ينص على احتكار صيد الفهود في غابات منطقة جيجل.¹

ولم يكن منح الهدايا المتضمنة الحيوانات المفترسة يقتصر على الحكام فقط، بل كانت تتعداهم إلى الشخصيات الدينية والمرابطية المهمة وهذا ما دلت عليه الهدية التي أرسلها باشا الجزائر لمرابط زاوية شلاطة في نواحي أقبو من إقليم بجاية ابن علي الشريف نظر للجهود التي بذلها في التصدي لثورة ابن الأحرش²، وكان من ضمن هذه الهدايا أسدين مدربين، وأحضر هذه الهدايا الرايس حميدو.¹

1- كانت جلود النمر من مظاهر البذخ والترف في هذا العهد حيث كانت مطلوبة من الباشوات والبايات، فكان البايات يمنحونها إلى البشوات، وكان الباشوات يرسلونها بدورهم كهدايا إلى السلاطين العثمانيين.

2- من المعروف أن ابن الأحرش هذا تزعم ثورة كبيرة في بايلك الشرق الجزائري سنة 1804، ضد السلطة العثمانية، أدت إلى مقتل نعمان باي، وانتهت هذه الثورة بالفشل حيث تصدت لها السلطة حينها مدعمة بقبائل المخزن والأسر الكبيرة المحلية، وقد تناولت بالدراسة والبحث هذه الثورة العديد من الكتابات والبحوث لمزيد من التفاصيل يرجى الإطلاع عليها:

-ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، الجزائر، 1988، ص170.

-محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأئيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1979، ص207.

-الشيخ أحمد المبارك: تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق نورالدين عبد القادر، الجزائر، 1952، ص13.

هدايا البايات للباشوات:

كانت إيالة الجزائر كما هو معروف تتألف من إقليم دار السلطان حيث كان يوجد مقر الحكم المركزي بمدينة الجزائر، وثلاث بايليات وهم حسب ترتيب الأهمية: بايلك الشرق، وبايلك الغرب وبايلك التيطري، وكان الباشا هو من يعين البايات على رأس كل منها،² فكان على هؤلاء البايات

-أبو راس الناصري: درء الشقاوة في فتنة درقاوة نقلا عن مقدمة المهدي البوعبدلي في الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لابن سحنون الراشدي، قسنطينة، 1973، ص 46.

-أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب الأشراف، نشر تحقيق ونشر توفيق المدني، الجزائر، 1974، ص 87.

-محمد الصالح العنترى: سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة، نشر رايح بونار تحت عنوان مجاعات قسنطينة، الجزائر، 1974، ص 33.

-حمدان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص 132-133.

-Adrien Berbrugger : un Chérif Kabyle, in RA, T3,1858, p211.

-Charles Féraud : Zebouchi et Osman Bey, in RA n° 6, 1862, p121.

-Eugène Vaysettes : Histoire de Constantine sous la domination Turque, pp164-171.

-Henri de Grammont : Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, édition Bouchène, Paris, 2002, p285.

1- أرسل الباشا الرايس حميدو على رأس قوة بحرية إلى جيجل وقام بقنبلة معاقل الشريف ابن الأحرش وأتباعه.

2- كثيرة هي الكتابات التاريخية والدراسات الأكاديمية التي تناولت التنظم الإداري في الجزائر خلال العهد العثماني نذكر على سبيل المثال:

-Haedo (Fray Diego de): **Topographie et histoire générale d'Alger**, traduit de l'espagnol par Monnreau et A Berbrugger, édition bouchène, paris, 1998.

-Venture (de Paradis) : **Alger et Tunis aux XVIII siècle**, édition Sandbad, Paris, 1983.

-Berbrugger Adrien: **Le Pégnon d'Alger, ou les Origines du gouvernement turc en Algérie**, 1860.

حسب ما جرت به العادة منذ استحداث هذا التنظيم، يقومون بزيارة الباشا مرة كل ثلاث سنوات وهو ما يعرف باسم الدنوش الأصغر، وكانوا يرسلون خلفاؤهم كل سنة لحمل الأموال لوضعا في الخزينة والهدايا للباشا وكرار رجال الحكم، ومنذئذ أصبح هذا التقليد معمولا به حتى نهاية الحكم العثماني في الجزائر، وأصبحت الهدايا ذات فعالية كبيرة بحيث أصبحت قيمتها تقرر مصير الباي بإعادة تثبيته في منصبه أو عزله الذي كان في الغالب يعقبه القتل، وبهذا فإن فلسفة الحكم العثماني في الجزائر كانت تقوم على الهدية، وعلى التقارير التي كانت تسبق وصول الباي إلى مدينة الجزائر في رحلته المعتادة، والتي على أساسها يحدد مصيره، ولذلك كان البايات

-
- المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني- القرصنة، الأساطير والواقع، ج 2، دار القصبية للنشر، الجزائر، 2009.
- نور الدين (عبد القادر): صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965.
- المدني (أحمد توفيق): حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، ش. و.ن. ت، الجزائر، 1976.
- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني - م. و. ك، الجزائر، 1984.
- سعيدوني (ناصر الدين)، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، 1830/1800، الجزائر، ش. و.ن. ت، 1979.
- الجيلالي (عبد الرحمان): تاريخ الجزائر العام، ج 3، ط 7، د م ج ، الجزائر، 1994.
- حمدان خوجة: المرأة، تعريب وتقديم، محمد العربي الزبيري، ط 2، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982،

حريصين على أن تكون الهدايا التي يحملونها إلى الباشا وإلى رجال الحكم الآخرين ثمينة.¹

وقد ذكر أحمد الشريف الزهار أنه كان من ضمن هدايا باي الشرق للباشا أربعين بغلة على ظهر كل منها ألف ريال صغيرة وأربعين فرسا من الخيول المسمومة، وصناديق السباع والنمرة وبقر الوحش وغيرها من الحيوانات.²

ويبدو أن الحكام العثمانيين لم يستثمروا علاقاتهم مع الأهالي فيما يتعلق بالامتيازات الممنوحة للشيوخ والمرابطين على وحه الخصوص على الأشياء التي لها علاقة بالاقتصاد فحسب، بل تعدى الأمر إلى امتيازات صيد الفهود وهذا ما تبينه الشهادة التي منحها أحد البايات قسنطينة لأحد شيوخ أسرة بن حبيص في منطقة الدهامشة التي كانت تشمل جغرافيا قبائل الدهامشة وبني عزيز والعين الكبيرة وبابور وسرج الغول وبوصلدوع (الشرفة)³، حيث تظهر وثيقة تعود للقرن الثامن عشر امتياز صيد الفهود منحه باي قسنطينة للأسرة المذكورة⁴، وتجدر الإشارة إلى أن المنطقة كانت

1- خليفة حماش: محاضرات غير منشورة أقيمت على طلبة السنة الأولى ماجستير تخصص تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2002-2003.

2- أحمد الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار، تقديم وتحقيق توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 39.

3- تقع هذه المناطق شمال شرق مدينة سطيف، حيث تتوفر على ثروة غابية كان السكان يساهمون باستغلالها في تزويد مصلحة الكراست بالأخشاب والفلين، خلال العهد العثماني. لمزيد من المعلومات راجع مقالنا: «غابات منطقتي بجاية وجيجل ودورها في تدعيم قوة الأسطول الجزائري خلال العهد العثماني» نشر المجلة التاريخية الجزائرية، يصدرها مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، عدد 05، ديسمبر/2017، جامعة محمد بوضياف - المسيلة.

4- Charles Féraud: « Exploitation des forêts de la karasta dans la Kabylie orientale sous la domination Turque », op, cit.p243.

تتوفر على هذا النوع من الحيوانات حيث كان البايات يقدمون جلودها كهدايا إلى البشوات، ولا تزال بعض الأمكنة تحمل دلالات تواجد هذه الوحوش في منطقة العين الكبيرة على سبيل المثال مثل مرجة الصيد وعين الصيد وغيرهما، وكلمة الصيد هنا يقصد بها الحيوان المفترس وتطلق على الأسد والنمر والفهد.

لقد كان حكام الجزائر على غرار باقي الحكام في ذلك العصر يعتنون بتربية الحيوانات المفترسة لاستخدامها في الهدايا وللتسلية والترفيه في أيام المناسبات والأعياد والأفراح، وهذا ما أشار إليه الرحالة الأنجليزي شو حيث قال: "لا يوجد شيء اقتصادي للغاية وساهر كثيرا على مصالحه مثل البايك، فهو يحافظ على العديد من الأسود والفهود، ليقدمها كهدايا لكبار الشخصيات في مناسبات معينة، وهذه الحيوانات لا تكلفه أي صولدي فيما يخص إطعامها. كان أولئك الذين يعتنون بالحيوانات¹ ملزمون بإطعامها، كانوا يطعمونها رؤوس الأغنام والبقر، وكان بائعو اللحوم ملزمون ببيعهم تلك الرؤوس بثمان محدد وزهيد لكي يقوموا بأعمالهم في السجون الثلاثة. وكانت الحانات الأخرى تدفع سنوياً إلى البايك ألف سكة جزائرية، حوالي 10000 فرنك، و أصحاب تلك الحانات كانوا أكثر ثراءً في السابق عندما كانوا على سيرتهم الحسنة: لكنهم اليوم يكسبون أقل بكثير لأن أرباح القرصنة تقلصت إلى حد كبير"².

1- يذكر بعض الكتاب أن الأسرى المسيحيين التابعين للبايك كان يسمح لهم بامتلاك حانات داخل السجون وإدارتها بأنفسهم من أجل جمع القدر الكافي من المال لاستخدامه في اقتداء أنفسهم، أنظر على سبيل المثال:

Paul Teyssier: Esclave à Alger- Récit de captivité de Joao Mascarenhas (1921-1626), Collection Magellane, Editions Chandeigne, Paris, 1999.;

2- فونتير دو بارادي: الجزائر خلال القرن الثامن عشر، ترجمة وتعليق الدكتور لخضر بوطبة، كتاب تحت الطبع، ص 56.

خاتمة:

في الختام يمكن القول أن السلطة الجزائرية خلال العهد العثماني مثلها مثل الحكومات الأخرى، تعني بالثروة الحيوانية من أجل استخدامها في المظاهر الترفهية، لاسيما خلال المناسبات والأعياد الدينية، كما كان السكان يستغلون هذه الثروة الحيوانية لخدمتهم، فعلاوة على الاستفادة من لحومها وجلودها وفروها وريشها فإنهم كانوا يبيعونها للأجانب، على الرغم من مخاطرها، إلا أنهم لم يعدموا الوسيلة للتعامل معها، وأخذ الحيطه والحذر منها، ولقد ألفوا وجودها بالجوار فلم يعودوا يخشونها كثيرا. إن هذه الثروة الحيوانية هي ذكر ثمين وجب الحفاظ عليه في الوقت الحالي من خلال تنظيم عملية الصيد وحماية الأنواع المهددة بالانقراض، والاهتمام والعناية بهذه الثروة للحفاظ على التوازن البيئي مهمة الجميع.

كانت طيور النعام متوفرة بكثرة في الجنوب الجزائري عامة، ويكثر في نواحي ورقلة حيث يصطاده الأهالي للحصول على جثته وشحومه، ويستخدمون ريشه ويبيعونه في الأسواق، كما يأكلون بيضه. وكان ريش النعام من بين البضائع التي كانوا يتاجرون بها داخل الجزائر وخارجها مع تونس والمغرب وليبيا وبلاد السودان.¹ وفي الختام يمكننا القول أن الاهتمام والعناية بموضوعات التاريخ الطبيعي لهي من الموضوعات المهمة والمكتملة للفعل التاريخي، الذي ينبغي أن لا يظل حبيس الأحداث السياسية والعسكرية ويوسع من مجال اهتماماته إلى دراسة الطبيعة والتغيرات التي طرأت عليها عبر الزمن، بغية الإسهام في المساعي الرامية إلى الحفاظ على هذا لموروث الطبيعي، ومنه المحافظة على الأنواع النادرة قصد الحفاظ على التوازن البيئي الذي هو ضروري لاستمرار الحياة الطبيعية للإنسان والحيوان على حد سواء، ولذا فقد حان الوقت للالتفات إلى هذا النوع من الموضوعات ذات الصلة بمحيط الإنسان وبيئته.

1 - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، (1792-1830م)، ط2، م وك، الجزائر، 1984، ص 167.